

الدكتور عزت السيد أحمد

# الأيدىولوجيا والعلم

العلامة بين التفكير والحياء والعلم والفهم



عزیز السید احمد

الایدیولوجیا والعلم  
(العولمة بین الفکر والعلوم والعلوم والعلوم)



الدكتور عز الدين سيّد أحمد

# الأيدولوجيا والعلم

المؤلف: د. عز الدين سيّد أحمد



دار الفنون والعلم 2017



- ☆ الكتاب : الأيديولوجيا والعلم ☆
  - ☆ العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم ☆
  - ☆ الكاتب: عزت السيد أحمد ☆
  - ☆ عدد الصفحات: ١٣٨ صفحة ☆
  - ☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤ ☆
  - ☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف ☆
  - ☆ الحقوق جميعها محفوظة ☆
  - ☆ تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضه بأيّ وسيلة ☆
  - ☆ من وسائل الطّباعة والنّشر والإعلام ☆
  - ☆ من دون موافقةٍ خطيّةٍ من المؤلّف ☆
  - ☆ النّاشر: دار فن وعلم ☆
  - ☆ طرابلس ٢٠١٧م ☆
- 
-

الإهداء

إلى ذكري

أستاذي الدكتور نايف بلونز

الذي تم هذا البحث بإشرافه

أهدي هذا الكتاب

عزائي سيد أحمد



# مقدمة

مقدمة الكتاب هذه هي الوحيدة الجديدة فيه وما بقي منه من ألفه إلى يائه إنما هو بحث كتبه عام ١٩٩١م إبان دراستي في دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة حقلة بحث لمقرر المناهج والإبستمولوجيا بإشراف المرحوم الأستاذ الدكتور نايف بلوز.

لم يطل الأمر بالبحث كثيراً في انتظار النشر فقد تأتى له النشر سريعاً إذ نُشر في تشرين الأول من عام ١٩٩٢م في العدد ٣٤٩ من مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة بدمشق، تحت العنوان ذاته الأيديولوجيا والعلم، وكان رئيس التحرير حينها الأديب الكبير بأدبه وأخلاقه الأخ العزيز عبد الكريم ناصيف الذي أوجّه له الآن تحية إكبار وتقدير. وهو المشهود له بالنزاهة والكفاءة، وقد نال البحث في ذلك الحين تقديره وإعجابه فسارع إلى نشره، ولم يكن يهمل غيره مما كان يرد إلى المجلة، فقد كان متابِعاً مواظباً بعد فترة الانهيار التي عاشتها المجلة



بسبب اللامبالاة الهائلة والاستهتار الشديد من قبل رئيس التحرير السابق الذي نسيت اسمه على شهرته.

إذن البحث الأصل منشور في العدد المذكور آنفاً من مجلة المعرفة السورية الصادرة عن وزارة الثقافة، يمكن الرجوع إليه بسهولة لمن أراد، بل إنَّ البحث في حدود علمي موجود في بعض مواقع الإنترنت نقلاً عن مجلة المعرفة، مما يجعل العثور عليه والمطابقة أمراً أيسر من اليسير.

وعلى أساس هذا الإيضاح أقول: إنَّ هذا الكتاب هو البحث ذاته الذي كتبه عام ١٩٩١م ونشرته بعد نحو سنة أي عام ١٩٩٢م في المجلة المذكورة، ولم أضف إلا النزر اليسير واليسير جداً إلى البحث المنشور في مجلة المعرفة والإضافة إنما كانت في الفترة ذاتها لا بعدها ناهيك عن فقراتٍ قليلة أو بعض السطور التي حذفها من البحث تصغيراً لحجمه كي يناسب المجلة، وتمكن المقارنة والمطابقة بيّنَ هذا الكتب والبحث المنشور في المجلة في عام ١٩٩٢م.

قد يتساءل متساءلٌ: وكيف انتفخ البحث الذي هو جزء من مجلة إلى أن يكون كتاباً من دون إضافات؟

المسألة بسيطة في حقيقة الأمر ولا تحتاج إلى عناء تفكيرٍ ليتحقق الفهم، السبب في الفرق بيّنَ الحجمين؛ حجم البحث في المجلة وحجم البحث في الكتاب هو صغر حجم الخط في المجلة من جهة أولى وكبره أكثر في الكتاب، ومن جهة ثانية فإنَّ تخصيص عناوين الفقرات وتحويلها إلى فصول قد أضاف إلى عدد الصفحات ما لا يقل عن أربع وعشرين صفحةً وكان

حجم البحث في المجلة نحو خمس وثلاثين صفحة فيما أذكر... وبذلك ينتهي اللغز.

مرّة أُخرى أكرّر لا داعي لمزيد من التّساؤل والمماحكة فالبحث كما هو في المجلة موجودٌ ليس من العسير الحصول عليه يمكن المقارنة والمطابقة. الحقيقة أنّي لست مضطراً لهذا الكلام التّقديمي كله لولا التّحسب من الطّعانيين هواة المماحكة والمجادلة... فمن يعرفني لا يحتاج أن أطيل له في الشّرح والتّبيان يكفيه أن أقول إنّهُ كذا وكذا وانتهى الأمر.

بل كان من الممكن والسّهّل جدّاً أن لا أشير إلى تاريخ البحث وتنتهي المشكلة أساساً. فالبحث لا يقلّل تاريخه من قيمته ورُبّما لا يزيد فيها، فهو كما هو الآن ومن قبل ومن بعد، ولم تتغيّر رؤيتي فيه ولا أظنّها تتغير. ومن ثمّ فإنّ كتبه اليوم أو قبل أربعين سنة فلا فرق في القيمة، وإنّما أردت ذكر تاريخه لوضعه في سياقِي التّاريخي بالنّسبة لي أنا ولمن يتابع الأمر من النّاحية التّاريخيّة ومن يعنيه تاريخ كتابة البحث.

تراجع الاهتمام بالأيدولوجيا والدراسات الأيدولوجيا كثيراً جدّاً عقب انهيار الاتحاد السوفيتي حتّى بات الاهتمام بها شبه منعدم في نحو السّنات العشر الأخيرة أو تزيد قليلاً ونحن اليوم في عام ٢٠١٧م، وفي السّنات العشر التي سبقتها كان الاهتمام بها جدّ ضئيل ولكنّه موجودٌ بطريقةٍ أو بأخرى.

من الطّرفة بمكان أن يكون انهيار الاتحاد السوفيتي هو السّبب في انهيار الاهتمام بالأيدولوجيا مثلما وجود الاتحاد السوفيتي هو سبب كثرة الاشتغال في الأيدولوجيا.

ولا غرابة إذ ذاك أن نعلم أيضاً أن الاهتمام بدراسة الأيديولوجيا والتّ نظير الأيديولوجي قد تصاعد بوتأشر متسارعة عقب الحرب العالميّة الثّانية مع نشأة الاتحاد السّوفيتي وكأنّ نشأة الاتحاد السّوفيتي هو السّبب في ولادة الأيديولوجيا.

نعم الصّراع بيّن الشّرق والغرب؛ الشّرق الغربي والغرب الغربي، بيّن المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي كان صراعاً أيديولوجياً بالدّرجة الأولى وربّما الأخيرة على الرّغم من كلّ أنواع التّهديدات العسكريّة والمظاهر العسكريّة للصّراع وسباق التّسلح، وسباق التّسلح أمرٌ قائم بالضرورة أكان ثمة صراع مباشر أم لم يكن فهذه طبيعة السّلطة والدّولة.

أساساً لم يكن الاهتمام بالأيديولوجيا منقطعاً قبل الحرب العالميّة الثّانية ونشأة الاتحاد السّوفيتي، لقد كان موجوداً وبوفرة على نحوٍ خاصّ على امتداد السّاحتين الأوروبيّة والأمريكيّة، ولكن ليس على النّحو الغزير والكبير الذي كان ممتدّاً ما بيّن نهاية الحرب العالميّة الثّانية ونهاية الاتحاد السوفيتي.

من الطّبيعي أن يتساءل متسائل: لماذا ارتبط الاهتمام بالأيديولوجيا بالاتحاد السّوفيتي؟

الحقيقة في نظري عائدةٌ إلى أنّ كارل ماركس، الذي هو مرجعيّة الفكر الاشتراكي والشيوعي، هو الذي منح الأيديولوجيا هذا الرّزخ من الاهتمام والعناية لمحاربة الرأسمالية وقد اعتبرها ومن تلاه من أسلافه أحد أبرز الأسلحة في مواجهة الرأسماليّة ومحاربتها.

من هنا ندرك لماذا ارتبط الاهتمام بالأيديولوجيا بوجود الاتحاد السّوفيتي من ناحيةٍ أولى، والنّاحية الثّانية وهي الأكثر أهميّة هي أنّ أكثر من تسعين بالمئة

من الدِّراسات المعنية بالأيديولوجيا صدرت عن مفكرين وفلاسفة شيوعيين سواء  
أني أوروبا أم أمريكا أم سائر بقاع العالم.

ومع انهيار الاتحاد السُّوفيتي ونهاية المنظومة الاشتراكية وإعلان  
هزيمة المعسكر الشيوعي ونهاية أيديولوجيته بدا أنَّ الأيديولوجيا قد  
انهارت أيضاً. ولهذا وهم، الأيديولوجيا لم تنته ولا تنتهي. أقول ذلك  
على الرَّغم من أنَّ في فترة كتابة هذا البحث وضعت في تصوُّري مخطَّطاً لوضع  
كتاب بعنوان انهيار عصر الأيديولوجيا. وكنت دقيقاً في تصوُّري: أتحدث عن  
انهيار عصر الأيديولوجيا لا عن انهيار الأيديولوجيا، تماشياً مع سلسلة  
الانهيارات التي كنت قد كتبتها والتي كنت أخطِّط لكتاباتها وقد نشر منها  
حتَّى الآن ثمانية كتب وهي حسب التَّرتيب المصحَّح لا تاريخ النشر:

١. انهيار أسطورة السَّلام؛ مصير السَّلام العربي الإسرائيلي . الطبعة  
الأولى: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. الطبعة الثانية: دار الفكر  
الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٣م.

٢. انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.

٣. انهيار أوهام فوبيا الإسلام . كيملك يايانلان . قيصري/ تركيا .  
٢٠١٧م.

٤. انهيار الشعر الحر . الطبعة الأولى: دار الثقافة . دمشق .

١٩٩٤م . ط ٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٣م.

٥. انهيار دعاوى الحداثة ؛ الحداثة ضرورة تاريخية لا خيار سياسي .

دار الثقافة . دمشق . ١٩٩٥م.

٦. انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.

٧. انخيار مزاعم العمولة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعتها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.

٨. انخيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.

وَمَثَمَ غَيرها سَیَصَدُر مَتى أُتِیَحت لَها الفَرسَة إن شاء اللّهُ تَعالی .

کَتب هَذا البَحث إِبان اَکتمال تَفکَک الاتحاد السُوفِیَتی ونَهايتَهِ وهی سَنَة ١٩٩١م، وَکان الِاهتمام بالأَیْدیولوجیا إن لم یَکُن عَلی أشَدَهِ فَعَلی درجَة عالِیَة مِن الِاهتمام، وَمَعَ ذَکَ، وَعَلی الرَّغَم مِن الکَثیر مِن الکُتابات ما بَیَن کُتِبَ وَأَبحاثٌ ومَقالاتٌ فی الأَیْدیولوجیا فلم أَجد أَبدأً مِن کُتب عَن هَذا المَوضوع عَلی نَحو مَباشر: الأَیْدیولوجیا والعَلم، ولا العَلاقَة التَّأثیریَة المُتبادَلَة بِمَختَلَف أَوَجهِها السَّلَیْبَة والإِیجابِیَّة. وهَذا ما حَفَظَني ولَقِی إعجاب الأستاذ الدکتور نایف بلوز فأَبَدی حَماستَهِ لَهِ.

مِن غَیر المَکَمَن افترَاضِیًّا أن یَکُون أوَّل بَحث فی المَوضوع، وَلَکِنِّي فی حُدود عَلمی حَینَها ومَحَشی الطَّویل المَعَمَّق لم أَجد فی أیِّ لَغَة بِحْثاً مُناقِشَة العَلاقَة التَّأثیریَّة المُتبادَلَة بَیَن الأَیْدیولوجیا والعَلم والفَهم. أَقول لم أَجد ولا أَقول لا یَوجد. کانت إمکانات البَحث مُحدودَة وَضِیقَة. وَلَکِن مَعَ ذَکَ کان الباحث الجاد یَستطیع استَقْصاء نَسیبَة کَبریَة مِن الأَبحاث مِن خِلال مَفاتِیح البَحث مِن المَراجِع والمُوسوعات والأَبحاث والأَساتذَة وَغَیر ذَکَ تَبَعاً لِبراعة الباحث وَقَدراتِهِ.

وأنا أَکُتب السُّطور السَّابِقَة کان فی بَالی ما وَصل إلِیه الإنترنَت مِن اتساع وتَیسیر عَلی الباحثین، فَخَطَرَ فی بَالی أن أَلقی نَظَرَةً فی هَذه

اللحظة على الإنترنت بحثاً عن الأيديولوجيا والعلم فوجدت عدداً من العناوين التي تتناول العلم والأيديولوجيا كلها بطبيعة الحال تعود إلى السّنوات الأخيرة نشرًا، أقول بطبيعة الحال لأنّ الإنترنت يظهر تاريخ النّشر، والإنترنت لم ينتشر إلا في السّنوات الأخيرة... وغالب ظنيّ أنّها أيضاً نشرت في أوقات كتاباتها لأنّ النشر على الإنترنت غالباً لا يحتاج إلا إلى ضغطة زرّ تستغرق بضع ثوانٍ لا تصل إلى الدّقيقة، ويؤكد حقيقةً حداثة كتابتها ونشرها أسماءُ الباحثين الذين كتبوها... لهذا من دون الدّخول إليها لمزيد من التّحقّق.

حسناً، أضع لهذا البحث بَيِّنَ أيديكم كما كتبته تماماً قبل أكثر من ربع قرنٍ، لا أُغيّر فيه ولا أبَدِّل ولا أزيد فيه ولا منه أنقص. ليس لإيماني بتمامه أو كماله فلا كمال إلا لله تعالى، ولا بحث إلا ويمكن أن يزداد فيه وينقص منه. وإنما أفعل ذلك لسببين رئيسين:

**أولهما** نشر البحث كما هو في نسخته التي كتب بها في وقته، لأنّ البحث، لهذا وغيره، وإن كان صالحاً لأكثر من زمان، فإنّه ابن ظرفه ووقته وشروطه التّاريخيّة التي ولد فيها، ولا أريد أن أفسد هذه اللحظة التي أنتجت هذا البحث بأيّ إضافةٍ أو إنقاصٍ أو تعديلٍ، سيّان أكانت على صوابٍ أم حَتَّى على خطأ.

**ثانيهما** أيّ أريد أن أحافظ على ما كتبته قبل ربع قرنٍ وأكثر كما هو لوضع أفكارٍ ومواقفي وآرائي وطريقة تفكيري وكتابتي كما كانت في ذلك الحين لمن يريد أن يتتبع ذلك أو يقارنه ولنفسه أنا شخصياً.

وختاماً من الضروري الإشارة أيضاً إلى أن لهذا الكتاب أعدُّ للنَّشر كما هو الآن ما عدا هذه المقدِّمة منذ عام ٢٠٠٠م، وهممتُ بنشره في ذلك الحين لولا تقدم أولويات أُخرى عليه أخرته إلى عام ٢٠٠٧م حين حصلت على الموافقة على نشره من وزارة الإعلام بدمشق. ولكن أيضاً ظهرت أولويات عليه أخرته إلى أجلٍ غير مسمّى وإن كان جاهزاً لإخراجاً للطباعة، حتّى هذا اليوم الذي تفرَّغت فيه لمخطوطاتي الكثيرة أخرجها للطباعة تبعاً...

تركت الكثير من الأعمال والمشاريع الجديدة حتّى أتمكن من نشر ما استطعت من مخطوطاتي، وأسأل الله تعالى أن يعينني على نشرها جميعاً وما استجدَّ بعدها. والله الأمر من قبل ومن بعد.



# الفصل الأول ما المعالم؟





لَعَلَّ كلمة «أيديولوجيا» هي الأكثر ذيوياً  
واستخداماً بَيْنَ أوساط المثقفين خاصةً، ولكنَّ  
الدَّلالة الأكثر شيوعاً وانتشاراً لهذه الكلمة،  
والتي تعني «الفكرة أو جملة الأفكار التي  
يعتقدها المرء ويعتقها، فتحكم وتوجه فهمه  
وثقافته وتطلعاته» لا تعدو كونها واحدةً من  
الدَّلالات التي مرَّت بها هذه الكلمة منذ  
ولادتها وَحَتَّى الآن.

وإن كان لهذا الفهم يلقي تقبل جلَّ الباحثين والمفكرين واستحسانهم،  
إلا أَنَّهُ يثير مشكلاتٍ ومسائل عديدةً، أبرزها في استجلاء أبعاد هذه  
الدَّلالة، وأشدّها خطورة في مدى التأثير الأيديولوجي في ضروب العلم  
والمعرفة.

وهاتان المسألتان هما اللتان سنعي الآن بالكشف عن مضامينهما  
محاولةً منا للوقوف على أهميَّة الدور الذي تمارسه الأيديولوجيا في حياتنا  
وخطورته، وكما يتسنى لنا ذلك لا بُدَّ لنا من المرور ولو سريعاً على أهم  
الدلالات التي تضمنها المفكرون للأيديولوجيا، ومدى بعد هذه الدَّلالات عن  
المعنى الأصلي الأوَّل الذي قصده واضح هذا الاصطلاح. وكذلك على  
دلالات العلم والفهم. نبدأ بالعلم ونثني بالأيديولوجيا ونتابع في أبعاد العلاقة  
بَيْنَ العلم والأيديولوجيا من مختلف جوانبها.

## أولاً: فني مفهوم العلم

العلم شأن أيّ اصطلاح له أصلٌ لغويٌّ وتفرُّعٌ اصطلاحيّ لا يختلف عن الأصل اللغوي إلا في الارتقاء ضبطاً ودقّةً وتحديدًا. ولذلك يظلُّ الجذر اللغوي هو الأساس في تحديد المعنى الاصطلاحيّ لأنّ هذا الأخير ابن الأول وامتداد له بالضرورة، إلّا فيما شدّ وندر من الخروج عن الأصل.

العلم في لسان العرب نقيض الجهل. ويقال: علِمَ علماً فهو عالم وعليم. هذا التّحديد اللغوي يكاد يتطابق مع التّحديد الاصطلاحي<sup>(١)</sup>، وخاصّةً إذا ما تابعنا ابن منظور فيما استشهد به عن ابن جني رأى أنّ المرء لا يوصف بالعلم أو العالم إلّا إذا كان نتيجة طول المزاولة، وإلا فإنّ المرء يظلُّ متعلماً. ويوضح هذا المستوى الدّلالي لمفردة العلم أبو البقاء الكفوي في معجم الاصطلاحات والفروق اللغويّة إذ يحدّد العلم بأنه: «معرفة الشّيء على ما هو به»<sup>(٢)</sup>. أي معرفة حقيقيّة، أي ثابتة.

جميل صليبا يعيدنا من جديد إلى المستوى اللغوي، ولكنّ بمزيدٍ من الضّبط الذي أفاد فيه من التّطور التّاريخي والدّلالي، فقال: «العلم هو الإدراك مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً. يقينياً كان أو غير يقينيّ. وقد يطلق على التّعقل، أو على حصول صورة الشّيء في الدّهن»<sup>(٣)</sup>. وينطلق من دون توضيح أو إشارة إلى البعد الاصطلاحي على الفور إذ يتابع قائلاً: «أو يطلق على إدراك الكلّي

---

١. ابن منظور: لسان العرب . دار إحياء التراث العربي / مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . ط ٣ . ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م . مادة علم.

٢. أبو البقاء الكفوي: الكليات . وزارة الثقافة . دمشق ج ٣ . ١٩٨٢ م . مادة علم.

٣. جميل صليبا: المعجم الفلسفي . الشركة العالميّة للكتاب وآخرون . بيروت . ١٩٨٦ م . مادة علم.



مفهوماً كان أو حكماً، أو على الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو على إدراك الشيء على ما هو به، أو على إدراك حقائق الأشياء وعللها، أو على إدراك المسائل عن دليل، أو على الملكة الحاصلة عن إدراك تلك المسائل»<sup>(٤)</sup>.

ملاحظ المستوى الاصطلاحي للعلم إذن تحدّدت في أصل الجذر اللغوي من جهة تحديده بكونه إدراك الشيء بما هو عليه. وإدراك الشيء بما هو عليه هو إدراكه إدراكاً حقيقياً، أي إدراك حقيقته إدراكاً صحيحاً. وإذا كان كذلك فإنَّ أوَّل وأهم ما يتَّصف به العلم هو أنَّه معرفة ولكنَّه تلك المعرفة المتَّصفة باليقينية لأنَّها معرفة بالجواهر والجواهر غير متغيِّرة، خلاف الأعراض التي تتغيَّر وتبدَّل تبعاً للظرف والشرط والحال والزَّمان والمكان...

لهذا الفهم للعلم يضعنا أمام مشكلة عسيرة الحلِّ، بل ربَّما تكون مستعصيةً على الحلِّ، وربَّما تظلُّ مستعصية على الحلِّ، وهي أنَّ العلم بهذا التَّحديد يمكن أن يكون عن طريق الإشراق والإلهام والكشف كما يرى المتصوفة خاصَّة الذين يرون علمهم يقينياً لا يدانيه شكٌّ ولكن مع ذلك لا يمكن لأحدٍ غيرهم إدراك الحقائق التي يدركونها، ولا يمكن التَّوثق من صحَّة ما يعلمون.

يجب أن نميز هنا بينَ اليقين الشَّخصيِّ واليقين العلميِّ، بيِّن الحقيقة الشَّخصية والحقيقة العلميَّة. اليقين في الدَّلالة سواء مهما كانت طبيعته؛ إنَّه اليقين. وكذلك الحقيقة لا تقلُّ قيمتها مهما كانت طبيعتها؛ إنَّها حقيقة.

إذن نحن لا نعترض هنا على أنَّ المعرفة المتحصَّلة بالكشف الصُّوفي أو الحدسي أو الإيمان هي معرفة يقينية أو حقيقة أو ثابتة، ولكنَّنا لا

نستطيع أن نسمي ذلك علماً بالمعنى الاصطلاحي العام، إنَّه علمٌ خاصُّ له قوانينه الخاصَّة الاستثنائية التي لا تنطبق إلا عليه، ونتأججه غير ملزمةٍ إلا لأصحابه.

هنا نقطة انطلاق تحديد العلم، وهي أنَّ نتأجه ملزمةٌ بالإطلاق، وهذا ما يميِّز العلم عن المعرفة عامَّة، فالمعرفة نتأج أو معلومات غير ملزمةٍ، فالعلم إذن أخصُّ من المعرفة، إنَّه جزء منها، ولكنَّه أعلى درجات المعرفة وأرقاها. ومعنى ذلك، وفق صليبا، أنَّ «من شرط العلم أن يتضمن درجةً كافيةً من الوحدة والتَّعميم، وأن يكون بحيث يستطيع النَّاس أن يتَّفقا في الحكم على مسائله، لا بالاستناد إلى أذواقهم ومصالحهم الفرديَّة، بل بالاستناد إلى ما بيَّن هذه المسائل من علاقات موضوعيَّة يكشفون عنها بالتَّدرج، ويحقِّقونها ويثبتونها بطرق محدَّدة»<sup>(٥)</sup>.

إنَّ تحديد صليبا للعلم بالشَّروط اللازم له تحديدٌ لا يفتقر إلى الصَّواب، ولكنَّه يفتقر إلى مزيد من الدِّقة التي تخرجه من إطار الروح المطاطة التي أضفاها على مفهوم العلم، ومن المؤكَّد أنَّ كريم متى اطلع على ما قدَّمه صليبا فحاول تجاوزه في الموسوعة الفلسفيَّة العربيَّة فحدَّد العلم بقوله: «العلم نسقٌ من المعارف التي ترتبط بعضها ببعضٍ ارتباط النَّتأج بالمقدِّمات في الاستدلال السَّليم. ففي العلم إذن نستخلص قضايا كليَّة أو جزئيَّة معيَّنة من عددٍ قليل من المبادئ والقوانين التي نفترض صدقها أو نتحقَّق منه»<sup>(٦)</sup>.

٥. جميل صليبا: المعجم الفلسفي. مادة علم.

٦. كريم متى: مادة علم. ضمن الموسوعة الفلسفية العربية. المجلد الأول. المصطلحات والمفاهيم. معهد الإنماء

لم يستطع كَريم متى إزالة اللبس من تعريفه إذ ثَمَّة الكثير من المعارف «التي ترتبط بعضها ببعض ارتباط النتائج بالمقدمات في الاستدلال السليم»<sup>(٧)</sup>، ومع ذلك ليس من الضروري أن تكون علماً. ولا يتعد الشق الثاني من التعريف عن هذا الحكم. ورُبَّما لذلك اضطر إلى التعقيب على تعريفه قائلاً: «المعارف الجزئية التي نجدُها في دليل الهاتف والمعاجم وسجلات المواليد وجداول حركة القطارات والطائرات وكتب الطب لا تؤلف علماً على الرغم مما تتصف به من دقة وأهمية»<sup>(٨)</sup>.

مشكلة كَريم هنا هي أنه لا يميّز في الدقة بين المادة المعرفية المتضمنة التي لا تنتمي إلى العلم في شيء، وبين التصنيف الذي تقوم عليه هذه المعارف وهو العلم الذي يهب العارف دقة الانتظام.

هل يعني هذا أنه من المتعذر تقديم تحديد دقيق للعلم؟

على الرغم من الإصرار الكلي على أن العلم يتَّصف بالدقة التامة، بمعنى ما، فإنه من الصعب القول إنه سيكون الممكن تقديم تعريف أو تحديد للعلم غير قابل للتجاوز أو النقد، ومثل هذا ما ينطبق على تعريفنا التالي الذي نحاول فيه تجاوز عثرات التعريفات السابقة.

العلم، من وجهة نظرنا، هو كل منظومة معرفية تقوم على الاطراد القانوني المنتظم. أي الذي تكون فيه النتائج مبنية على قوانين منتظمة دقيقة لا تختلف من مكان إلى آخر، ولا من شخص إلى آخر، ولا من زمان إلى آخر إلا في إطار تضمن اللاحق للسابق. ولهذا يعني بالضرورة أن مادة العلم أصلاً قابلة للضبط

٧. م. س. ذاته.

٨. م. س. ذاته.

الدَّقِيق وقابلةٌ لأن تنقسم إلى وحدات متماثلة وللقياس بوحدات القياس أو ما يمكن أن تقاس به من وحدات القياس مثل وحدات المسافة والزَّمن والوزن والكم والوحدات المركبة من وحدتين أو أكثر من الوحدات السابقة وغيرها.

## ثانياً: خصائص العلم

تعريفنا السَّابِق ينطبق في حقيقة الأمر أكثر ما ينطبق على العلم الطبيعي ويكاد لا يدخل فيه العلم الاجتماعي وإن كان فيه ما يكفي لتوضيح مفهوم العلم، ولكنَّ كثيراً من المعارف لا يكتمل وضوحها من دون عرض خصائصها، بل قل لا تنفصل خصائص المعارف عن التعريف، فالخصائص جزءٌ من التعريف، ويصدق هذا على كثير من المعارف، ومنها العلم، فتعريف العلم يكفي للوقوف على معناه، ولكنَّ الخصائص وإن ظهرت في التعريف فإنَّ التفصيل فيها ضرورةً في بعض الأحيان، لأنَّها تزيد في التَّحديد والضَّبْط وتزيد في التَّوضيح.

كما قد يختلف التعريف في مفرداته وألويَّاته من مُعرِّفٍ إلى آخر، مع ضرورة الحفاظ على الوحدة المضمويَّة والدلاليَّة، كذلك فإنَّ الخصائص يمكن أن تختلف من محدِّدٍ إلى آخر، ولكنَّها يجب ضرورةً أن تكون دالَّة دلالةً صحيحةً وكافيةً. ولذلك، وبهذا المعنى، فإنَّ ما سنحدِّده من خصائص للعلم ليس إلا تعبيراً عن وجهة نظرٍ يمكن أن يكون هناك غيرها.

أولاً: أولى خصائص العلم أنَّه يقوم تأسيساً على منظومة أوليات تنقسم غالباً إلى قسمين أوَّلهما البدايات التي تتوافق عليها العلوم والمعارف كُلُّها، وثانيهما المسلمات أو المصادر التي يختص كلُّ علم على الأقل بمنظومته الخاصَّة من هذه المسلمات، وعليهما تنبني القوانين الأوليَّة التي يتمُّ بها برهان الفرضيَّات والوصول إلى التَّائج المتوخَّاة.

**ثانياً:** ثاني ما يميّز به العلم من خصائص هو أنّ نتائجه ملزمة للعقول جميعاً بقوة الإلزام ذاتها. ويكون ذلك تاماً غير مشروطٍ إذا تمّ التسليم بنسق المسلمات، أي يفقد الإلزام سلطته إذا تمّ رفض نسق المسلمات. ولكن لا يجوز أن يكون الرّفْض من أجل الرّفْض والعبث، لأنّ مسلّمات العلوم عامّة لها من قوّة الإلزام ما يفرض على رافضها تقديم البديل الذي يمكن التسليم به بما يمتلكه من تماسك وقوّة وكفاية، وإلا فإنّ الرّفْض مرفوض.

**ثالثاً:** من نتائج الخاصتين السابقتين خصيصةٌ جديدة، وهي أنّ العلم يقوم على التراكميّة العموديّة أو الامتداد الخطّي المباشر الذي يبني فيه الجديد على القديم بالضرورة، ولا يمكن للجديد أن يكون من دون أن يكون القديم قد كان.

**رابعاً:** يلزم عن الخاصّة السّابقة خصيصةٌ أخرى بل خصيصتان بالتّالي، أولاهما هي الرّابعة ترتيباً أي هذه، وهي أنّ كلّ لاحقٍ في العلم مبني على ما سبقه إنجازاً وتعلماً؛ فلا يمكن أن ننجز في العلم جديداً ما لم نهضم أو نستوعب أو نفهم ما سبق من قوانين وقواعد ونظريات. ولا يمكن تعلم النّظرية الجديدة أو زُجماً فهمها من دون تعلم وفهم ما سبقها من نظريات في العلم ذاته.

**خامساً:** آخر الخصائص، هنا، وهي نتيجة لازمة عن كلّ ما سبق، مع ما تتّسم به من استقلاليّة في إطار كونها من خصائص العلم، وهي أنّ ما لا يأتي به هذا العالم أو ذاك من اكتشاف أو اختراع سيأتي بالضرورة من يقوم عوضاً عنه بهذا العمل أو الإنجاز، فلو لم يكتشف ابن زهر الدّورة الدّمويّة لاكتشفها طبيبٌ يأتي من بعده، ولو لم يكتشف نيوتن قانون الجاذبيّة لاكتشفه عالم يأتي بعده، ولو لم يضع نيلز بور الفيزياء الكموميّة لوضعها



غيره... وهكذا في كلِّ المنجزات العلميَّة. قد يتأخَّر الاكتشاف أو الاختراع وقد لا يتأخَّر، ولكنَّه لا بُدَّ سيأتي لأنَّ سيرورة العلم ستقود إليه بالضرَّورة، وإلا توقف العلم في ميدانه عنده.

هذه أبرز خصائص العلم من وجهة نظرنا، ولكنَّها ليست الوحيدة، وليست نسخةً نهائيَّةً غير قابلةٍ للتَّعديل أو التَّبديل، على أنَّه من الضَّروري أن نشير إلى أنَّه مهما كان ما وصل إليه تنوع الخصائص من اختلاف فإنَّه لا بُدَّ من أن يدور في إطار ما سبق الحديث فيه من مفهوم العلم وخصائصه وإلا سنكون أمام أبعاد دالِّيَّة أُخرى يمكن أن تجعلنا أمام مفهوم آخر غير العلم.

### ثالثاً: ولادة العلم وتطوره

ثمَّة خلاف كان صغيراً وصار الآن كبيراً، ورُبَّما كبيراً جدًّا، في نشأة الفلسفة والعلم النظري عامَّة. فقد ظلَّ شبه إجماع على أنَّ العلم النظري لم ينشأ بصورته المنظَّمة الواعية إلا في القرن السَّادس قبل الميلاد، في اليونان وتحديدًا على يدي طاليس الملطي (٦٤٠ - ٥٤٧ ق.م)، ثُمَّ أتباعه من الطَّبَّعيين في المدينة ذاتها. وسرعان ما ثار الخلاف في ذلك ففي حين ذهب بروتاندر رسل إلى أنَّه طاليس؛ رأى فيكتور كوزان (١٧٩٢ - ١٨٦٧ م) أنَّه سقراط. وقال سانتهيلير (ت ١٨٩٥ م) إنَّها المدارس الثَّلاث المتعاصرة؛ الأيونيَّة والأيليَّة والفيثاغوريَّة...»<sup>(٩)</sup>. ومع اكتشاف الشَّرق القديم، منذ أواسط القرن العشرين، والتَّوسُّع في اكتشاف تراث هذا الشَّرق ثار الخلاف من جديدٍ وعلى نحو أكبر وأشد.

في أيسر الاحتمالات من المتعذر القول إنَّ ولادة العلم النظري كانت هكذا بغتة من دون سابق مقدمات. لا شكَّ في أنَّ هناك إرهاصات طويلة كان الشَّرق صاحب الفضل فيها، ومن المسلمات اليوم أنَّ بعض فلاسفة اليونان بل معظمهم قد زاروا بلاد الشَّرق واطَّلَعُوا على حضارتها وعلومها، واستفادوا منها كثيراً في صياغة أفكارهم وضبطها وتحديدها على نحوٍ متميِّز. ناهيك عن أنَّ كثيراً منهم بل من أشهرهم كان سوري الأصل.

«ومن دلالات سبق الشَّرق للغرب في مجالات التَّفكير النظري، ما خلَّفه لنا قدماء الشَّرقيين من وجوه النُّظر العقلي في الألوهيَّة والبعث والخير والشَّر والمبدأ والمصير ... وغير هذا من مجالات توصَّلوا بصدها إلى آراء تردَّد صداها بعد ذلك عند القدامى من فلاسفة اليونان»<sup>(١٠)</sup> وليس لهذا فحسب بل إنَّ كثيراً من العلوم التي نسَمِّيها تجريبيَّة قد عُرِفَتْ لدى شعوب الشَّرق القديم، على تباعد مساكنه، وتباين مشاريعه؛ كالطَّب والهندسة والحساب والفلك والكيمياء... بدءاً من الهند إلى فارس فالرافدين والسَّاحل السُّوري ووادي النَّيل... هذه الحضارات التي ما تزال آثارها ماثلة أمام أعيننا وإدراكاتنا أنصع دليل على ذلك.

مع انتقال العلوم والعقائد إلى اليونان انتظمت في الفكر اليوناني انتظاماً جديداً كانت الفلسفة حامله ومحوره، ومع ذلك كان ثمة شيء من التَّمایز بين العالم والفيلسوف، ولكنه ظلَّ غير ظاهرٍ. وظلَّ الأمر كذلك حتَّى عادت العلوم إلى الحاضنة العربيَّة التي بدأت فيها العلوم بالانفصال عن الفلسفة، فعرفنا لأول

مرّة في تاريخ الفكر البشري علماء يخوضون أبحاثهم وعلومهم باستقلاليّة عن الفلسفة وعن الدين مثل البوزجاني (ت ٣٨٧هـ/٩٩٨ م) وأولاد موسى بن شاكّر: ( محمد . أحمد . الحسن )، وثابت بن قرّة ( ت ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م)، وجابر بن حيّان (ت ١٩٤هـ/ ٨١٣ م) وبديع الزّمان الجزري (ت ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م)، وأُميّة بن أبي الصّلت (ت ٥١٢هـ/ ١١٣٤ م) ... وغيرهم. بل حتّى العلماء الفلاسفة أمثال ابن الهيثم، وابن سينا، والبيروني، والرازي وغيرهم عرفوا الحالة العلميّة المستقلّة فأنجزوا المبتكرات المهمّة والخطيرة في تاريخ من العلم.

ليس لهذا موضع تبيان إنجازات الحضارة العربيّة في العلم وولادة العلم الحديث<sup>(١١)</sup>. ولا السرقات التي العلميّة التي نحلها الأوربيون لأنفسهم والتي راحت تتكشف رويداً رويداً حتّى باتت جدّ معروفة عند المتابعين على الأقل. ولهذا ما أقرّ به عددٌ كبيرٌ من مفكري الغرب المشهود لهم أمثال جاستون باشلار، وجورج سارتون، ومونتجمري واط، ولويس ماسينيون، وشارل ساندرز بيرس، وموريس جيجر، وكلود كاهن، ويوجين مايرز، وجون هرمان راندال، وتوماس كون، وإدوار جي براون، وج. برنوفسكي، وج.د. برنال، ورودنسون، وماكس مايرهوف، وكاجوري، ونللينو وغيرهم كثيرون. ولهذا جورج سارتون (ت ١٩٥٦ م) يعلن أنّ جلّ ما صنعه علماء عصر النّهضة الأوروبيّة هو ترجمة واجترار الآثار السّابقة، ولا سيّما العربيّة الإسلاميّة التي

١١ . ناقشنا المزيد من التفاصيل في أثر العرب ولادة العلم ونشأة العلم الحديث والعلوم الاجتماعية وإنجازات الحضارة العربية في هذه الميادين انظر كتابنا: دفاع عن الفلسفة . مخطوط يصدر قريباً. (صدر عام ١٩٩٤)

يُغفلون أحياناً كثيرة أسماء أصحابها<sup>(١٢)</sup>، بل إنَّ بعضهم كان ينسب إلى نفسه ما كان يترجمه<sup>(١٣)</sup>... والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

الذي يعيننا هنا وباختصارٍ هو أنَّ نشأة العلم الحديث واستقلاله عن الفلسفة على أيدي الفلاسفة والعلماء الأوربيين لم تكن في حقيقتها سوى إعادة إنتاج ما توصل إليه علماء المسلمين إمَّا بالطريقة ذاتها أو بطريقة جديدة. وفي هذا حديث طويلٌ كثير التفاصيل يمكن الرجوع إليها لمن أراد متابعتها<sup>(١٤)</sup>.

## رابعاً: تصنيف العلوم

عرف تاريخ العلم العديد من تصنيفات العلوم، وقد توافقت التصنيفات في أشياء وتخالفت في أشياء، وكان منها من المتوافقات ما يكاد يكون متشابهاً تماماً، وكان منها من المتخالفات ما تتباعد به إلى حدٍّ كبير.

ربَّما كان **أرسطو** أوَّل من صنَّف العلوم، فقسَّمها إلى ثلاثة أقسام هي: «العلوم النظرية والعلوم العملية والعلوم الشعرية، وكلُّ منها ينفرعُ إلى مباحث عدَّة. أمَّا المنطق الذي لم يدرجه **أرسطو** ضمن أيٍّ من هذه الأقسام فقد عدَّه وسيلة أو أداة في خدمة العلوم»<sup>(١٥)</sup>.

وعلى نحوٍ مشابهٍ صنَّف **ابن سينا** العلوم الفلسفية، فقسَّمها إلى علومٍ عرضيةٍ كالطبِّ والزراعة، وعلومٍ أصليةٍ هي العلوم الفلسفية وهذه العلوم قد تكون

١٢ . انظر ذلك عند توفيق الطويل: أسس الفلسفة . ص ١٨٦ .

١٣ . لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن مراجعة الكتب التي تتحدث عن فضل الحضارة العربية الإسلامية ودورها في العلوم وهي كتب كثيرة جداً يضيق المجال عن حصرها.

١٤ . فصلنا في ذلك في كتابنا: دفاع عن الفلسفة . مخطوط يصدر قريباً . (صدر عام ١٩٩٤).

١٥ . د. غسان فينيانيس (بالاشتراك) : تاريخ الفلسفة القديمة والوسيلة . المطبعة الجديدة . دمشق . ١٩٨١ .

عملية وقد تكون نظرية؛ النظرية هدفها الخير العام، وتنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام هي: «الفلسفة السياسية والفلسفة المنزلية والفلسفة الأخلاقية. أما النظرية؛ فهدفها معرفة الحقيقة، وتنقسم بدورها أيضاً إلى ثلاثة أقسام: أدناها العلوم الطبيعية؛ وموضوعها الموجودات المختلطة مع المادة في الواقع والتصور، ثم الرياضيات؛ وموضوعها الموجودات المختلطة مع المادة في الواقع والمنفصلة عنها في التصور، وأرقاها علوم ما بعد الطبيعة؛ وموضوعها الموجودات المنفصلة عن المادة في الواقع وفي التصور، وهذا القسم الأخير يطلق على ثلاثة أنواع هي: الميتافيزياء، والعلم الكلي، والعلم الإلهي، ولكل منها خصوصيته ومجاله»<sup>(١٦)</sup>.

وعلى الوتيرة ذاتها تقريباً سار القديس توما الأكويني الذي قسم العلوم الفلسفية إلى أربعة أقسام هي: العلوم الطبيعية: وموضوعها الأشياء التي يقتصر دور العقل فيها على معرفتها من دون صنعها، وهي الميتافيزياء والرياضيات. والفلسفة العقلية: وموضوعها ما يصنعه العقل ضمن نشاطه الخاص، وهي المنطق. والفلسفة الأخلاقية: وموضوعها ما يصنعه العقل ضمن أفعال الإرادة. والعلوم التقنية: وموضوعها ما يصنعه العقل في الأشياء<sup>(١٧)</sup>.

لم يتوقف تصنيف العلوم هنا فقد تتالى الفلاسفة والمفكرون في اقتراح تصنيفات جديدة للعلوم، فكان منهم ابن خلدون وبيكون وآمبر وديكارت

---

١٦. انظر في ذلك :

ابن سينا : منطق المشرقين . ص ٥ / ٨ .

ابن سينا : الشفاء ؛ قسم المنطق ( المقالة الأولى ) . ف ٢ . ص ٢ / ١٥ .

١٧. انظر في ذلك :

وأوجست كونت وكيدروف وغيرهم غير قليل. سنترك كل هذه التصنيفات ونقف فقط عند خلاصتها.

نحن في حقيقة الأمر أمام تصنيفين كلٌّ منهما يتضمّن الآخر ويقوم عليه. أولهما التصنيف التراتبي أو الهرمي للعلوم والذي يمكن إرجاعه بحق إلى الفيلسوف الاجتماعي أوجست كونت. وثاني التصنيفين ينبنى في المبدأ على هذا التصنيف إلى حدّ كبير، ولكنّه يبدأ بتقسيم العلوم إلى مجموعات كبرى، وكل مجموعة لها تسلسل علومها.

يقوم تصنيف أوجست كونت على أربعة مبادئ أولها مبدأ ازدياد التعقيد وتناقض التعميم، وثانيها مبدأ التعلق والاستقلال النسبيان، وثالثها مبدأ التّشوّء التاريخي، ورابعها مبدأ التعليم. وعلى أساس هذه المبادئ كان تصنيف كونت التراتبي الهرمي الذي بدأ بأكثر العلوم تعقيداً وتعميماً وانتهى إلى أبعدها عن ذلك، فكانت لدينا وفقه ستة علوم أولها الرياضيات، وثانيها الفلك، وثالثها الفيزياء، ورابعها الكيمياء، وخامسها علم الحياة، وسادسها علم الاجتماع.

لهذا التصنيف الذي أفرز ست علوم تصدق على عصر كونت يظلّ صحيحاً في مبدئه، ويقبل التطوير والتّعميم بناء عليها لينطبق على ما وصل إليه العلم من تطوّر ومعطياتٍ جديدةٍ.

سنبني على المبادئ التي وضعها كونت بعد تطويرها نوعاً ما، ونصل من خلال ذلك إلى التصنيف الجديد الذي هو إلى حدّ كبير خلاصة ما نراه مصيباً من وجهات النّظر التصنيفيّة المعاصرة.

المبدأ الذي سيقوم عليه تصنيفنا هو العموميّة والشُمول. أشد العلوم شمولاً وتعميماً سيكون على رأس الهرم، يليه الذي هو أقل منه عموميّة وشمولاً، وهكذا.

الذي يتصل بهذا المبدأ ولا ينفصل عنه هو أنّه كلّما انفصل العلم عن المادّة أكثر كان أشدّ تعميماً وشمولاً، وكلّما اختلط بالمادّة أكثر كان أكثر ابتعاداً عن رأس الهرم وأقلّ تعميماً وشمولاً. لهذا يعني أنّه كلما كانت المادّة أكثر مرونة وسيولة كان العلم الخاص بها أبعد عن رأس الهرم أكثر، وعندما تنضاف إلى المادّة الحياة سيبتعد العلم أكثر عن رأس الهرم، وكلّما كانت الحياة أكثر تعقيداً كان ذلك أدعى إلى بعد العلم عن رأس الهرم أكثر. وهكذا سنجد أنفسنا أمام تسلسل متتابع تتألى فيه العلوم تبعاً لهذه المبادئ التي لزمّت عن بعضها بعضاً. وإذا كنّا سنقسم العلوم إلى ثلاثة مستويات فإنّ ذلك لا يغير في التّراتبيّة شيئاً، لأنّ هذه المستويات متتالية تتألياً هرميّاً تتحقّق فيها المعادلة التي صنّفنا العلوم على أساسها. يلي هذه المستويات الثلاثة مستوً رابعٌ الجديد فيه هو العلوم التّخوميّة بنوعٍ من التّكاملية التي يصعب تجاوزها أو التّكرار لوجودها، ولكنّها في الوقت ذاته ليست بالعلوم الجديدة.

هذه صورةٌ أوليّةٌ لتصنيفنا العلوم سنّوسع بها لاحقاً، والذي دعا إلى التّصنيف وفق هذه المستويات الثلاثة هو أنّ هذه المستويات هي في حقيقة الأمر فئات متباينة من أنواع العلوم لتشمل مختلف العلوم الطّبيعية والاجتماعيّة والتّخوميّة وحتّى ما يحتمل ولادته من علوم جديدة أو عدّه علماً بيّن العلوم.



## خاتمة

وإن بدا أننا أطلنا إلا أن هذه الإطالة مهمّةٌ وضروريّةٌ لتوضيح مفهوم العلم وعلاقته بالأيديولوجيا من خلال الأوجه المختلفة التي سنتحدّث عنها فيما سيأتي من فقراتٍ تاليةٍ.

عندما نتحدّث عن أثر الأيديولوجيا في العلم أو أثر العلم أو أي نوع من العلاقة بين العلم والأيديولوجيا وفق ما سيأتي فإننا نقصد العلم بمختلف معانيه ومستوياته ودرجاته ولا نعني به العلم الاجتماعي وحده كما يريد المتكلمون في أثر الأيديولوجيا في العلم. أثر الأيديولوجيا في العلم يمتدُّ إلى العلم الطَّبَّعي الذي يخال الكلُّ أو الأكثرون أنّه فوق الأيديولوجيا ولا يمكن أن يتأثّر بها أو يخضع لتأثيرها.

الحقيقة أن الكثيرين جدًّا جدًّا عندما يتحدّثون عن أثر الأيديولوجيا في العلم فإنّما يقصدون أثرها في العلوم الاجتماعيّة وحسب، كونها مفتوحةٌ على الفهم والتأويل وتعارض الآراء والمواقف وتناقضها... ويتحاشون غالباً إدراج العلوم الطبيعيّة ضمن مدى التأثير والتأثير كونها قانونيّة مقبولة غير خاضعةٍ لأثر الذات وفعاليتها... ولهذا في نظرنا<sup>(١٨)</sup> وهم لا أساس له من الصّحة. ولهذا ما سنبيّنه فيما سيأتي من فقرات.

د. أسد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم

---

١٨. في عام ١٩٩٠م ذهبت ببحث إلى أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه لنشره في مجلة التراث العربي التي كان يرأس تحريرها، ونشره في عدد أول عام ١٩٩١م. كنت أقول: أرى، وفي نظري... فنصحتني أن أستعيض عنها بضمير الجماعة، فالتزمت ذلك ردحاً من الزمن.





# الفصل الثاني مال الدين في حياة؟



نكرر هنا ثانية؛ لعلّ كلمة «أيديولوجيا»  
هي الأكثر ذيوياً واستخدماً بين أوساط  
المثقفين خاصّة، ولكنّ الدلالة الأكثر شيوعاً  
وانتشاراً لهذه الكلمة، والتي تعني «الفكرة أو  
جملة الأفكار التي يعتقدها المرء ويعتقها،  
فتحكم وتوجه فهمه وثقافته وتطلعاته»  
لا تعدو كونها واحدة من الدلالات التي مرّت  
بها هذه الكلمة منذ ولادتها وحتى الآن.

وإن كان هذا الفهم يلقي تقبُّلَ جلّ الباحثين والمفكرين واستحسانهم، إلا  
أنّه يثير مشكلاتٍ ومسائلَ عديدةً، أبرزها في استجلاء أبعاد هذه الدلالة،  
وأشدّها خطورةً في مدى التأثير الأيديولوجي في ضروب العلم والمعرفة.  
وهاتان المسألتان هما اللتان سنعنى الآن في الكشف عن مضامينهما  
محاولةً منا للوقوف على أهميّة الدور الذي تمارسه الأيديولوجيا في حياتنا  
وخطورته، وكما يتسنى لنا ذلك لا بُدّ لنا من المرور ولو سريعاً على أهمّ  
الدلالات التي ضمّنها المفكرون للأيديولوجيا، ومدى بعد هذه الدلالات عن  
المعنى الأصلي الأول الذي قصده واضح هذا الاصطلاح. وكذلك على دلالات  
العلم والفهم. بدأنا بالعلم في الفقرة السابقة ونثني الآن بالأيديولوجيا ونختتم  
بالفهم في إطار تحديد المفاهيم.

لا شكَّ في أنَّنا مدينون للماركسيَّة بالجانب الأهم من الفهم المعاصر لمصطلح الأيديولوجيا، لكثرة ما أطنب الماركسيون في الحديث عن الأيديولوجيا والأثر الذي تتركه في مختلف ضروب النشاط والوعي، حتَّى كان للماركسيَّة الحظ الأوفر في تحديد المعنى الشائع لهذا «المصطلح، الأمر الذي جعل النَّاسَ معظمهم يجنحون إلى الاعتقاد بأنَّ المصطلح أيديولوجيا يتَّصل «اتِّصالاً وثيقاً بالماركسيَّة، ولهذا السَّبب نجد أنَّ - ردودهم - واستجاباتهم عن هذا الاصطلاح مقرَّرة سلفاً على الأكثرية بتلك الصِّلة، مع العلم أنَّ هذا الاصطلاح سابقٌ على الماركسيَّة»<sup>(١٩)</sup>.

يعني هذا المصطلح في أصله اللاتيني «علم الأفكار» فهو مركب من لفظتين هما «ideo = فكرة» و«logos = علم» وقد «ظهر مصطلح الأيديولوجيا للمرَّة الأولى على قلم الفيلسوف الفرنسيِّ **دستوت دوتراسي** - ١٧٥٤م - ١٨٣٦م وذلك في كتابٍ له بعنوان (مذكَّرة حول ملكة التَّفكير) ثُمَّ توسَّع في شرح هذا المصطلح ضمن كتاب آخر عنوانه (تخطيط لعناصر الأيديولوجيا)، وقد عرف هذا الكتاب الأخير أفكار، أي مجمل واقعات الوعي من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقاتها بالعلامم التي تمثلها، ولاسيما أصلها»<sup>(٢٠)</sup>.

والحق أنَّ هذا التَّحديد الذي أطره **دوتراسي** للأيديولوجيا قد ظلَّ الموئل الذي يمتح المفكرون منه نسغ تعريفاتهم وتأطيراتها. وأيَّما كان التَّباين والاختلاف في فهم (الأيديولوجيا) يمكن رُدهُ إلى هذا التعريف الذي لا يمكن لنا إلا أن

١٩. كارل مائخام: الأيديولوجيا والطوباوية. ترجمة عبد الجليل ضاهر. بغداد. ١٩٦٨م. ص ١٢٦.

٢٠. رشيد مسعود: ملاحظات حول الفهم الفلسفي للأيديولوجيا. مجلة الفكر العربي العدد ١٥. ١٩٨٠م.



نفهمه على أنه، لا علم الأفكار بالمعنى «الايستمولوجي - علم العلم» ولا بالمعنى «الغنوسولوجي - علم المعرفة»، بل على أنها الأفكار ذاتها التي تهيمن على الباحث أو المفكر وتقود وعيه وفهمه لما هو قائم من أفكارٍ وقيمٍ ومفاهيمٍ على نحوٍ يعزّز العقائد التي يعتنقها، وتحفز على استيلاء الأفكار والقيم الجديدة التي تدعم عقائده، أو ما يمكن أن نسميه الفكر القابع خلف الفكر، أو جملة الأفكار القبليّة التي نعتقها وتقود فهمنا وتفسيراتنا لظواهر الطبيعة والمجتمع، على نحوٍ شعوريٍّ أو لا شعوريٍّ.

ويتّضح لهذا المعنى على لسان **دوتراسي** ذاته إذ يقول: «ثمة علمان ليسا مختلفين فحسب، بل متعارضين، يبالغ الناس في الإصرار على الخلط بينهما، أعني الميتافيزيقا اللاهوتيّة القديمة، أو الميتافيزيقا بالمعنى الحقيقي للكلمة، والميتافيزيقا الفلسفيّة الحديثة، أو الأيديولوجيا<sup>(٢١)</sup> لتبدو الأيديولوجيا وكأنّها الأفكار التي تقف وراء كلّ فلسفة. ويعزّز **دوتراسي** لهذا الفهم إذ يبيّن «أنّ علمه المقترح يمكن أن يوصف بأنّه أيديولوجيا إذا نظرنا إلى محتواه، ونحواً عامّاً إذا نظرنا إلى وسيلته، ومنطقاً إذا نظرنا إلى هدفه»<sup>(٢٢)</sup>.

وعلى رغم ذلك فإنّنا لا نستطيع أن ننكر البتة أنّ **دوتراسي** كان يقصد أن يؤسّس لعلمٍ جديدٍ بأصل الأفكار وصفاتها وقوانينها وعلاقاتها، ولكنّ المشكلة هنا هي أنّ ثمة علماً خاصّاً بالمعرفة، هو ما يمكن أن نسميه علم المعرفة (الغنوسولوجيا) لهذا العلم الذي يُعنى بأصل المعرفة ونشأتها وطبيعتها

٢١ . رشيد مسعود: مادة الأيديولوجيا . ضمن الموسوعة الفلسفية العربية . المجلد الأول . المصطلحات والمفاهيم

. معهد الإنماء العربي ١٩٨٦ م . ص ١٥٩ .

٢٢ . عبد الله العروي: مفهوم الأيديولوجيا . دار الفارابي . المركز الثقافي العربي/الدار البيضاء . ١٩٨٠ م . ص ٢٣ .

وحقائقها... ونظراً لوثيق الصلة وتلازمها غير المنفك بين الفكر والمعرفة، فقد بات لزاماً على علم الأفكار كيما يكون أصيلاً فعلاً ألا يكون صورة مطابقة، أو نسخة ثانية عن علم المعرفة، ولذلك كان عليه أن يتخذ منحى آخر مميزاً، وأن يبحث عن حقل جديد لممارسته، ولهذا ما كان فعلاً، إذ «اندفع علم الأفكار نحو البحث عن - أصل الفكر غير المطابق للواقع - وبدأ بتسليط الأضواء على تأثير التقاليد والمعتقدات والأفكار الموروثة، في صرف النظر عن استقامة مفترضة لمساره الطبيعي»<sup>(٢٣)</sup>.

وكان من الممكن أن تظل الأيديولوجيا علماً للفكر، لولا أن المفكرين والباحثين سرعان ما تلقفوا تعريف هذا العلم من دون غايته - لأنها كانت بالنسبة لهم بحكم تحصيل الحاصل - ليحولوه كما هو دونما تغيير إلى مفهوم يدل على ظاهرة معينة بذاتها، وإن اختلفت تفاسيرها ومضامينها تبعاً للنظرين إليها، وقصروا معنى الأيديولوجيا عليها، لتتجرّد بذلك من كونها علماً، ووراء هذا الاختلاف بحد ذاته يكمن جوهر الأيديولوجيا بالمعنى الخاص، أو بالمعنى الاصطلاحي المعاصر والشائع، «ونذكر المعنى الخاص لمفهوم الأيديولوجيا عندما يشير الاصطلاح إلى ما يغمر قلوبنا من شكوكٍ وريبٍ، وما يعتور نفوسنا من تردّدٍ عن الآراء والأفكار والتصورات التي يتقدّم بها المعارضون لنا، تعتبر تلك الآراء والأفكار والتصورات التي يتقدّم بها المعارضون لنا، تعتبر تلك الآراء والتصورات أفعلةً شعوريةً واعيةً تحجب الطبيعة الحقيقية للوضع الاجتماعيّة، لأن المعرفة الحقيقية بتلك الوضعيّة لا تتفق مع مصالح المعارضين»<sup>(٢٤)</sup>.



وبهذا المعنى كانت الأيديولوجيا عند ريمون آرون هي فكرة الخصم، وعند ماركس . ١٨١٨ . ١٨٨٣ قناعاً يخفي تقدّم التاريخ، وعند نيتشه . ١٩٠٠ م ستاراً يبعد عن الحياة<sup>(٢٥)</sup> وعند كارل مانهايم هي «تلك التفسيرات للوضع التي ليست تجارب مجسّدة، ولكنّها نوع من المعرفة المحرفة لهذه التجارب، تفيد إخفاء الوضع الحقيقي»<sup>(٢٦)</sup>.

ومع كارل يسبرز - ١٨٨٣ م - ١٩٦٩ م نقرب من الموضوعيّة أكثر فأكثر، فلم تعد الأيديولوجيا فكرة الخصم، وإمّا هي «تركيبة من الأفكار أو التمثلات تبدو في نظر الذات تفسيراً للعالم أو لوضعها الخاص، يمثل لها الحقيقة المطلقة، ولكن على شكل وهم»<sup>(٢٧)</sup> وبالتالي فليس ثمة ذات خلو من هذه التمثلات والأفكار، وهكذا نصل إلى المفهوم الذي حدّدناه مسبقاً للأيديولوجيا بقولنا: هي الفكرة أو جملة الأفكار التي يعتقدها المرء ويعتنقها، فتتحكّم في فهمه وتوجّه فهمه وثقافته وتطلعاته على النّحو الذي يؤكّد ويعزّز الأفكار التي اتخذها معتقداً. وعلى هذا النّحو فليس ثمة إنسان خلو من الأيديولوجيا، فلكل إنسان أيديولوجيّة خاصّة، كما أنّ لكلّ امرئ فلسفته الخاصّة، بل إنّ الأيديولوجيا هي الفلسفة عندما تتحول إلى وعيٍ ينهد لتأكيد محتواه وتبريره للذات أولاً وللآخرين ثانياً.

---

٢٥ . عبد الله العروي . مفهوم الأيديولوجيا . ص ٣٩ .

٢٦ . ميشيل فادية: الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية . ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي . دار التنوير .

بيروت . ١٩٨٢ م . ص ٢٢ .

٢٧ . م . س . ص ٢٣ .



هذه النقطة أو المسألة الأخيرة التي انتهينا إليها في تحديد مفهوم الأيديولوجيا تثير أكثر من مسألة وتفتح أمامنا أكثر من أفق لفهم طبيعة العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم وطبيعة التأثير وآليته.

المسألة الأولى هي قولنا بأن كل إنسان ينطوي على أيديولوجيا، كل ذات هي ذات أيديولوجية بطبيعتها وبنيتها وتركيباتها.

هذا الكلام يتناقض فيما يبدو مع افتراض الأكثرين أن الأيديولوجيا لا تكون، بمعنى من المعاني، إلا عند المثقف أو السياسي ربما بمعنى أكثر تحديداً. ويطلقون على هذا الشخص تسميات عدة كالمثقف العضوي، أو المثقف المتمي، أو غير ذلك.

ويتناقض هذا أيضاً مع الاعتقاد بأن الأيديولوجيا هي بنية سياسية للحزب أو الحركة. أي حزب أو حركة سياسية هو أو هي نشاط مبني على أساس أيديولوجي، أي على عقيدة، أي على أيديولوجيا...

لن نطيل في إيضاح تفاصيل هذا اللبس الذي ستتضح طبيعة الحال فيما سيأتي من فقرات تزيد كشف اللثام والغموض عن هذه العلاقة بين الأيديولوجيا والشخص الفرد والشخص العضوي والحزب والحركة وهلم جرّاً.

الأمر المهم الذي نودّ إيضاحه هنا هو تأكيد أن الأيديولوجيا بما هي فكر أو فكرة أو أفكار مسبقة على التفكير وينبني التفكير في أي موضوع عليها موجودة عند كل شخص بالمطلق من دون تحديد هويته أو عقيدته حتى لأجزم بأنها موجودة عند أكثر الناس بساطة وسطحية.

نتحدث عن الأيديولوجيا بوصفها فكرة أو قناعة، ولنصل إلى أنها قناعة تتألف من مجموع مبادئ العقيدة التي يتبناها الشخص أيًا كانت طبيعتها دينية



أو سياسيّة أو اجتماعيّة أو خليط من ذلك كله جميعاً. ولهذا الفهم لمعنى الأيديولوجيا نابع من أساس نشأتها وحراكها وفاعليتها ومن معناها ذاته وليس من خارجها بحالٍ من الأحوال. ولهذا هو المعنى الوحيد الذي يحفظ للأيديولوجيا قيمتها ومكانتها وقدرتها على الفعل والتأثير... ويحفظ لها قدرها وقيمتها العلميّة أيضاً. أما تحويل الأيديولوجيا إلى دوغما سياسيّة، إلى عقيدة حزب أو حركة سياسيّة، أو زُجماً حصرها بالتّيّار المقابل أو الخصم وحسب كما فعل الماركسيون فهذا ابتذال بالعموم وتجريد للأيديولوجيا من قيمتها الحقيقيّة وتحويلها إلى غوغائيّة الأعداء.

بهذا المعنى الذي أرادته الماركسيون للإمبرياليّة والحركات الرجعيّة على حدّ تعبيرهم نتساءل: بماذا خرجوا عن المفهوم السيء المقيت للأيديولوجيا الذي ألبسوه لخصومهم؟

إنّ ما نشهده من ممارسات في الأنظمة الاشتراكيّة أي الماركسيّة بمعنى من المعاني هو الممارسة الغوغائيّة الصّرف والتعتيم على الحقائق التي لا تنسجم معهم على الرّغم من كونها حقائق. لا أريد الإطالة في الشّواهد الغوغائيّة التي تمارسها الأنظمة الاشتراكيّة من تعتيم وتجهيل وغير ذلك بدوافع أيديولوجيّة فهي أكثر من أن تحصى، ولا تصل النُظم الإمبرياليّة في هذا الشّأن إلى واحد بالمئة مما تفعله هذه الأنظمة على شعوبها في أقلّ تقدير.

لاحظ أنّ ما تمارسه هذه الأنظمة تمارسه على شعوبها بما يعني في تصوّرنا أنّ الأمر يتعدّى التّأثير الأيديولوجي إلى التّضليل المقصود، تضليل من يعرف الحقيقة ويتستر عليها ويخفيها ويقدم للجمهور معلوماتٍ ضالّة خاطئة كاذبة. هذه الممارسة تتعدّى الفاعليّة الأيديولوجيا وتدخل في باب آخر صورته أنّه يتم



تحت الفاعليّة الأيديولوجيّة ولكنّه ليس كذلك في حقيقة الأمر. الفاعليّة الأيديولوجيّة تقوم على أساس السّيطرة على نمط التّفكير ومنهجه وتدفعه للفهم بطريقةٍ معيّنة تتناسب مع العقيدة التي يحملها لتعزيزها أو الدّفاع عنها أي تحت أيّ سببٍ آخر يندرج في هذا الإطار. فيما التّضليل المبني على معرفةٍ بالحقيقة ثمّ تشويهها أو تحريفها أو تغييرها فهذا تزوير عن عمدٍ لأغراضٍ وإن كانت الأيديولوجيا وراءها إلا أنّها لا علاقة لها بالتّفكير ومنهجه... إنّها عدوانٌ على الحقيقة. ولا يعتدي على الحقيقة على قصدٍ إلا عدوّ للحقّ والحقيقة.

هذه إضاعة على مفهوم الأيديولوجيا، أقول إضاعة لأنّنا نتوقّع المزيد من الإضاعات يمكن أن تلقى على هذا المفهوم. وهي وجهة نظرنا في الأيديولوجيا على أساسٍ منهجيٍّ وعلميٍّ وتاريخيٍّ. أعني ليست محض وجهة نظرٍ، ففي العلم والمفاهيم لا توجد وجهات نظر تحت سقف اللغة... توجد اجتهدات تبعد وتقترب قليلاً أو كثيراً ولكنّ الأصل يجب أن يبقى موجوداً. فأني وجهة نظرٍ هذه التي تلغي الأصل وتمحوه تماماً.

عندما أتحدّث عن مفهومٍ من البداية بمكان أن ثمة مجموعة من الثوابت لا يمكن أن تتغيّر، والألبسة التي نكسوها للمفهوم بعد ذلك هي التي تقبل التّغيّر والتّبدّل تبعاً لوجهات النّظر، وقل تبعاً للأيديولوجيا فلا بأس.

أقول ذلك لأننا وجدنا وجهات نظر في الأيديولوجيا، وبعضٍ غير قليلٍ غيرها من المفاهيم، وجهات نظر وآراء ومواقف ما أنزل الله بها من سلطان، ولا علاقة لها بالمفهوم الذي يتحدّثون عنه، فتجد من يتحدّث عن الأيديولوجيا وكأنّها المقدّس الذي لا يجوز المساس به، وتجد في الوقت ذاته من يتحدّث عنها وكأنّها وباءٌ يجب القضاء عليه، وهلم جرّاً...

خلاصة القول في مفهوم الأيديولوجيا هي أنَّها ليست عيباً ولا عاراً كما يحاول الكثيرون تصوُّرها أو تصويرها، وليست ممارسةً غوغائيةً، ولا ممارسةً معاديةً، وليست عقيدة الخصم أو العدو كما رأى بعضهم وهذا من أسوأ تعريفاتها وأكثرها بلادة. وفي الوقت ذاته ليست قداسة ولا مقدسة.

الأيديولوجيا باختصارٍ شديدٍ هي فاعليَّة الأفكار التي يعتنقها أو يعتقدونها المرء في طريقة تفكيره وفهمه رُبَّما لأيِّ شيءٍ في يمرُّ معه في حياته، ورُبَّما على الأقلِّ في الأمور المهمة أو الحاسمة، ولكنَّها بالتَّحديد الأكيد فاعليَّة هذا الأفكار القبليَّة في طريقة تفكيره وفهمه واختياره وتحليله... للأمور المتصلة بعقيدته الفكرية من قريب أو بعيد...

نعني أنَّه من غير المستلح ولا المستظرف إدخال الأيديولوجيا في طريقة شرب الشاي أو القهوة أو ركوب الدَّراجة أو لبس البنطلون... وإن كُنَّا، ويا للمضحك المدهش، نرى من يبيِّن هذه الأشياء على الأيديولوجيا، وفي ذلك أمثلة كثيرة لا تعرف إن كان عليك أن تضحك أم تتحسر أسفاً على حاملي هذه القناعات التي تجعل شرب القهوة أو الشاي أو لبس القبعة أيديولوجيا أو طقساً أيديولوجياً.

د. السيد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم

بسم الله الرحمن الرحيم  
أحمد  
أحمد بن محمد بن أحمد

## الفصل الثالث

# آلية التأثير الأيديولوجي



إنَّ غالبية المستعملين اليوم ينسون أو  
يتناسون هذه الارتباطات المنطقية، لكنَّهم لا  
يستطيعون محوها من تفكيرهم، فتؤثّر في  
تحليلاتهم، وتحدّد اختياراتهم وتفرض عليهم  
مناهجهم على الرّغم عنهم.

عبد الله العروي

ولكن كيف تقود الأفكار من يعتقنها وكيف توجهه ولماذا؟  
ثلاثة تساؤلات جدّ مهمّة تكاد تختصر المشكلة برمتها، ولذلك من غير  
المبالغ فيه القول إنّ الإجابة على هذه التّساؤلات تعني بصورة أو بأخرى  
الكشف عن آليّة التأثير الأيديولوجي في عمل الباحث أو المفكّر عموماً، فما  
هي هذه الآليّة؟

«إنّ كلّ استعمال لمفهوم الأيديولوجيا مرتبطٌ بمجالٍ وبعلةٍ وبوظيفةٍ ويقود  
حتماً إلى نظريّة، ويخلق نوعاً من التّفكير... إنّ غالبية المستعملين اليوم ينسون أو  
يتناسون هذه الارتباطات المنطقية، لكنَّهم لا يستطيعون محوها من تفكيرهم،  
فتؤثّر في تحليلاتهم، وتحدّد اختياراتهم وتفرض عليهم مناهجهم على الرّغم  
منهم»<sup>(٢٨)</sup>.

والحقيقة أنّ هذا التّأثير وتحديد الاختيارات وفرض المناهج، أو ما يمكن أن  
نسمّيه في جملة آليّة التأثير الأيديولوجي ذو شقّين متكاملين متلازمين في آن



معاً، هما الجانب الشعوري والجانب اللا شعوري، إذ إنَّ الأفكار التي يعتنقها المرء تؤثر فيه وتقوده شعورياً، أي إنَّه يدرك أنَّ ما يقوم به إنَّما هو بدافع ما يعتنقه من أفكارٍ ومثلي ومبادئ...

كما أنَّها تؤثر فيه وتقوده لا شعورياً من حيث هي موروثٌ فكريٌّ قابِعٌ في طوايا العقل الباطن الذي يفعل فعله وهو متوارٍ، بعيد عن إدراك المرء ووعيه.

وقبل أن نعرِّج على هذين الجانبين اللذين يشكلان محور آليَّة التأثير لا بُدَّ من الإشارة إلى الأساس الذي يستندان إليه وينطلقان منه، لأنَّه هو الذي يسوِّغ التأثير بكليته ويعطيه أهميَّةً وضرورةً في نظر المرء، ولهذا الأساس يتمثَّل في حقيقة الأمر في مضمون الأيديولوجيا ودلالة الأفكار المكوَّنة لها، وهنا يمكن الحديث عن الصَّعدين التَّالين:

## أولاً: شمولية الرؤية

يميل الإنسان بما يحمل من معارف وثقافات وتجارب وخبراتٍ، ولاسيَّما البَحَاثة منهم، إلى تكوين رؤيةٍ خاصَّةٍ للكون والحياة، ولكنَّ هذه الرُّؤية تظلُّ غامضةً غير متمايزة إذا لم يعها الإنسان، فإذا وعها فإنَّها تتَّجه إلى التَّبَلُّور والتَّحدُّد، وتبدو في نظر صاحبها رؤيةً شاملةً تفسِّر العالم، ويشترَّب إلى إيصال هذا التفسير إلى النَّاس جميعاً، وإقناعهم به، وبهذا المعنى يتحدَّث ياكوب باربون عن سمتين أساسيتين تدخلان في تشكيل كلِّ موقفٍ أيديولوجيٍّ، وهاتان السَّمَتان هما «النُّزوع نحو الكليَّة والشموليَّة. فالأيديولوجيا تقوم أساساً على تقسُّم تفسيرٍ شاملٍ وجامعٍ للعالم... وطموح الأيديولوجيا إلى جعل نفسها



مقياساً للحياة الإنسانية وسعيها من أجل سريان مفعولها على جميع الناس وكل مجالات الحياة»<sup>(٢٩)</sup>.

لننتبه جيداً إلى عبارات **ياكوب باربون** إذ يتحدث عن الأيديولوجيا وكأنّها كائنٌ حيّ مستقلٌّ بينيته وهويّته مثل الإنسان ولها طموح إلى أن تجعل نفسها مقياساً للحياة الإنسانية.

هَذَا مَأْزُقٌ شديد الخطورة وتحويلٌ عجيبٌ وقع فيه غالبية منظري الأيديولوجيا والمتحدثين إذ يتحدثون عنها على أنّها بنيةٌ أو كينونةٌ حيّةٌ تسعى وتريد وتُفعل وتطمح... أي على أنّها ذاتٌ مستقلةٌ على الإنسان تقبع في ذات الإنسان ورُبّما خارجه وتلك مصيبةٌ أخرى.

لا نريد الآن مناقشة هذه الفكرة وهي مسألةٌ تستحقُّ المناقشة والوقوف عندها طويلاً في حقيقة الأمر. وَلَكِنِّي سأتعامل معها من باب المجاز وأنَّ المقصود هو الإنسان بما يحمله من فكر أو عقيدة، أو العقيدة التي يعتنقها الإنسان وتُمارس تأثيرها على النحو الذي نسمّيه أيديولوجيا.

الإنسان بما يحمله من فكر وعقيدة لا يستطيع الانسلاخ عنها إنما يؤمن بها ويعتقها ويعتقدها لأنه يؤمن أصلاً وأساساً أنّها العقيدة الصحيحة السليمة، وبالاحتكاك مع العقائد الأخرى ومؤثرات تربويّة واجتماعيّة تلقاها عبر مراحل حياته يميل إلى يميل إلى أنّ عقيدته هي الأصل والأساس، وهي الأكثر صحّةً وصواباً، ومن ثمّ فإنّّها الرؤية الأكثر شموليّةً التي تستحقُّ أن يؤمن بها الجميع، تستحقُّ أن يؤمن بها الجميع، لننتبه إلى هذه الفكرة، عقيدته تستحقُّ أن يؤمن

بها الجميع، ولذلك فإن من واجبه أن يقنع الناس بها وينشرها. ولذلك بالكاد نجد صاحب عقيدة مهما كانت لا يرى هذه الرؤيا ولا يعمل على نشر عقيدته بإقناع الناس بها، والأخطر من ذلك كله هو إيمانه بخطأ الآخرين من دون مناقشة ومن دون فهم... بل الأشد خطراً من ذلك كله من دون رغبة أو إرادة أو حتى قابلية لفهم الآخر كما سنبين فيما سيأتي.

هذا الكلام يصح على العقائدي أو الأيديولوجي وأعني بذلك الحزبي أو المتحزب لحزب سياسي أو حتى ديني، ويصح أيضاً على الإنسان العادي الذي ينتمي إلى أي حزب أو حركة سياسية أو دينية. فالإنسان أصلاً كائن أيديولوجي سواء انتمى لحراك أو حزب أو لم يتم.

## ثانياً: مصداقية الرؤية

ولكن لماذا يشرئب العقائدي . الأيديولوجي إلى فرض رؤيته على الناس جميعاً؟ إن السبب الجوهرى الذي يقف وراء ذلك هو ما يمكن أن نسميه مصداقية الرؤية، هذه المصداقية المرتبطة بصاحبها ارتباطاً وثيقاً، منطقياً ونفسياً لا يمكن للمرء أن يؤمن بفكرة هو متيقن أو مقتنع بأنها كاذبة أو خاطئة أو باطلة، يستطيع الإنسان أي إنسان أن يكذب على الجميع ولكنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه، لا يستقيم ذلك مع بنية العقل والتفكير. وبهذا المعنى فإن الأيديولوجيا «تكتسي صبغة سلبية أو إيجابية حسب هوية المستعمل، يرى المتكلم أيديولوجيته الخاصة عقيدة تعبر عن الوفاء والتضحية والتسامي، ويرى في أيديولوجيات الخصوم أقنعة تستر وراءها نوايا خفية ولا واعية يحجبها أصحابها حتى عن أنفسهم، لأنها حقيرة لئيمة.

إنَّ أيديولوجيا المتكلم تغَيِّر الطَّرِيق فتَهْدِي الخلق إلى دُنيا الحقِّ، والعدل، بَيْنَمَا تعمي أيديولوجيا الخصوم النَّاس عن سبيل الحقيقة والسعادة»<sup>(٣٠)</sup> ولذلك فإنَّ وفاء وحرص وإخلاص وتفاني الأيديولوجي للآخرين وللإنسانية، يفرض عليه أن يخلِّصهم من الانحراف وراء المخادعين المضللين الذين يبعدونهم عن جادة الحقِّ والصَّواب.

وهنا يندفع الأيديولوجي للاضطلاع بمهمَّة تثوير النَّاس وإطلاعهم على حقائقه التي توصل إليها بإخلاصه وحرصه، مكرِّساً جهوده لإثبات ما توصل إليه من حقائق لإقناع الآخرين بها، وهنا يمارس التأثير الشُّعوري واللاشعوري دوره في توجيه الباحث وقيادته إلى طرائق محدَّدة في معالجة مسأله وإثباتها، وانتقاء ما يتناسب مع أيديولوجيته من الأفكار والمبادئ والأسس... وغضَّ الطَّرْف عمَّا سواها.

من الضَّرورة بمكان أن ندرك جيِّداً هنا أنَّ هذا الإيمان المرء بمصادقيَّة الأفكار التي يحملها والعقيدة التي يعتنقها لا يعني أبداً أنَّه مصيب في ذلك. وإلا لكانت كلُّ العقائد المتناقضة صحيحةً. إنَّها صحيحةٌ في نظر صاحبها وحسب، صحيحةٌ في نظر من يعتنقها ويعتقدها وحده.

هل يعني ذلك أنَّه لا توجد عقيدةٌ صحيحةٌ؟

توجد عقيدةٌ صحيحةٌ هي عقيدتي. هذا الجواب ليس مزحاً، هذا جواب أيِّ شخصٍ وأيِّ صاحب عقيدةٍ... وكلُّ إنسانٍ صاحب عقيدةٍ بطبيعة الحال. وبعيداً عن ذلك توجد حقيقةٌ بالضرَّورة، وتوجد عقيدةٌ صحيحةٌ

بالضرورة. لا يمكن أبداً ولا بحالٍ من الأحوال أن يكون كلُّ شيءٍ خطأً وكل عقيدة خطأً.

المشكلة الكبيرة في مسألة الحقيقة هنا هي أنَّ للحقَّ وجهٌ واحدٌ وللباطل ما تبقى من الأوجه. إذا كان لون هذا القلم بنفسجياً فقولك لونه بنفسجي هو الوجه الصحيح الوحيد، وإذا أردت أن تكذب فأمامك مليون احتمال بل أكثر. وإذا كان الكرسيُّ داخل هذه الغرفة وأردت أن تقول الصدق أو الحقيقة فأمامك قولٌ واحدٌ وحيدٌ هو: إنَّ الكرسي داخل هذه الغرفة، ولا ننفي التلاعب بالتعبير بطبيعة الحال، وإذا أردت أن تكذب فإنَّك تمتلك آفاقاً مفتوحة غير منتهية لتقول الكذب... ملايين الاحتمالات أمامك، يَينَمَا أمامك احتمالٌ واحدٌ وحيدٌ إذا رمت الصدق.

هذه هي المصيبة الكبرى والحقيقية فالقناعات والعقائد التي يحملها البشر متنوعةٌ تنوعاً لا حدود له، يَينَمَا الحقُّ والصَّواب في كلِّ أمرٍ واحدٍ. ومع ذلك ما من أحدٍ يرى أنَّ عقيدته أو قناعته خاطئة. بل يراها عين الصَّواب والحق والصدق.

إذن لا بديل عن التَّحَايِل النَّفْسِي الذي يلف حول الحقيقة بالمدورة للاقتناع بأنَّ ما يحمله من وهم إنَّما هو حقيقةٌ وصدق. ولهذا ما يكشف لنا عن سرٍّ أو سبب اقتناع النَّاس بأوهامٍ صريحةٍ وإيمانهم بها على أنَّها هي أسُّ الحقِّ والحقيقة وأنَّهما الأصل والفصل وما عداها باطلٌ فاسدٌ ضالٌّ مضللٌّ.

لا يستطيع الإنسان أن يعتقد أمراً وهو معتقدٌ بطلانه ولذلك تأتي الحيل الدِّفاعية من البنية النَّفْسِيَّة لتلتف على الحقيقة وتلبسها ألبسةً غيبيةً وأسطوريةً

وما ورائية لتجعل قبولها واستساغتها أمراً سهلاً ومُقنعاً. يقتنع الإنسان أن عبادة الحجر أمرٌ مججوجٌ ولا قيمة له وأنه سخفٌ فلماذا يفعل ذلك إذن؟ لأنه يتحايل على الحقيقة بإلباس عبادة الحجر لبوساً أسطورياً وميتافيزيقياً ليغدو الأمر مقبولاً ويخرج المرء من دائرة السُخف والهراء التي تحيط بهذا العمل ما لم تكن تلك التبريرات الخرافية موجودة.

كثيرٌ من الشعوب وكذلك الأشخاص يعتقدون عقائد أو قناعاتٍ سخيفةً متناقضةً واهيةً تتهاوى أمام أول مناقشةٍ ولكنهم مع ذلك يعتقدونها بقناعةٍ غير قابلة للتزعزع. القناعات مبنيةٌ على أساس المصادقية غير القابلة للجرح أو التعديل.

## خاتمة

بُهذين العنصرين؛ الشمولية والمصادقية، تتشع أي عقيدة يعتنقها المرء سواء أكانت سياسية أم دينية أم اجتماعية أم منظومة أفكارٍ فرديةٍ أو شخصية... وبهذين العنصرين تتحصن قناعات الذات، وبهذين العنصرين يتعامل الإنسان أو الذات مع الخارج أو الآخر سماعاً وإسماعاً.

الخارج والآخر. أمران مختلفان بطبيعة الحال وليسوا واحداً وإن كان يمكن القول بأن الخارج يمكن أن يتضمّن الآخر. قلت الآخر لأن الآخر ذات أخرى سواء أكانت فردية أم جمعية. أمّا الخارج فهو المعطيات الخارجية التي يتلقاها المرء أو يستقبلها من معطيات علمية أو معرفية أو رؤياً غيرها وإن كانت أي معطيات خارجية ستحوّل في المحصلة إلى معطيات علمية أو معرفية لأنها لا يمكن أن تكون إلا مدركات تحت باب أي حاسة، وفي النتيجة لن تكون هذه المدركات إلا معلومات بطريقةٍ أو بأخرى.

التأثير الأيديولوجي يمتدُّ إلى كلِّ ما تتعامل معه الذات بالملق ولكن غالباً ما تنحصر أو تتأجج الفاعليَّة الأيديولوجيَّة أمام ما يمسُّ ما يسميه الكثيرون القناعات المبدئيَّة.

هذه هي الآليَّة أو بالأحرى مركّبات آليَّة التأثير الأيديولوجي. كيف يتمُّ ذلك؟ يتمُّ إمَّا بآليَّة شعوريَّة مباشرة، أو بآليَّة لاشعوريَّة. الأمران كلاهما ما سنتكلم عليه الآن.

د. السيد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم

## الفصل الرابع

# التأثير الشعوري للأيدولوجيا





الأيديولوجيا جزءٌ عضويًا من كلِّ وحدةٍ  
مجتمعيّةٍ... وبنية ضروريّة للحياة التاريخيّة  
للمجتمعات، لا يمكن أن تظلَّ حيّةً من دون  
هذه التشكيلات النوعيّة، هذه الأنظمة  
للتطوّرات التي هي الأيديولوجيا... إنّ هذه  
المجتمعات تعزّز الأيديولوجيا كما لو أنّها  
المُناخ أو البيئة الصّوريّة لتنفّسها، لحياتها  
التاريخيّة.

#### ميشيل فادية

يستمدُّ هذا الجانب قدرته التّأثيريّة في الباحث من كون الأيديولوجيا ظاهرة  
اجتماعيّة أو جمعيّة، من حيث هي مجموعة الأفكار والمبادئ والأسس... التي  
تهيمن في مجتمعٍ ما على أشكالٍ مختلفة متباينة، غالباً ما تتخذ شكل العادات  
والتقاليد والأعراف، بالمعاني والدلالات الأوسع لهذه الكلمات، لتغدو  
الأيديولوجيا بهذا المعنى. كما يقول كارل ماركس وفريدريك أنجلز - ١٨٩٥م:  
«الأفكار السّائدة في عصرٍ معيّن والتي هي على الدّوام طريق أفكار الطبّقة  
السّائدة في ذلك العصر، حيث تعتبر الأفكار السّائدة من هذا المنظور التّعبير  
المثالي عن العلاقات التي تجعل الطبّقة الواحدة طبقةً سائدة»<sup>(٣١)</sup>.

على أن سيادة هذه الطبقة قد تكون بالمعنى السلطوي والسياسي وبذلك تضيق حدود هذه الطبقة ويقل عدد أفرادها، وقد تكون السيادة بالمعنى النظري من حيث إنها الشريحة الأوسع في المجتمع التي تهيمن أفكارها وتسود على عموم المجتمع. ولتغزو الأيديولوجيا بهذا المعنى «جزءاً عضوياً من كل وحدة مجتمعية... وبنية ضرورية للحياة التاريخية للمجتمعات، لا يمكن أن تظل حية من دون هذه التشكيلات النوعية، هذه الأنظمة للتطورات التي هي الأيديولوجيا... إن هذه المجتمعات تعزز الأيديولوجيا كما لو أنها المناخ أو البيئة الضرورية لتنفسها، لحياها التاريخية»<sup>(٣٢)</sup>.

وفي الحالين كليهما تكون الأيديولوجيا بمنزلة بؤرة تلتقي حولها إرادات الأفراد الذين يعتقدونها ويجدون في أنفسهم مرغمين على الانقياد لها والدفاع عنها لاعتبارات متعددة ومختلفة، سيان أكان ذلك شعورياً، ويتجلى ذلك عند الذين يعتقدون هذه الأيديولوجيا بصورة واعية، أم لا شعورياً عند عامة الأفراد الذين ينتمون إليها، ويتجلى الانقياد للأيديولوجيا أكثر - شعورياً - خصوصاً - ولا شعورياً، أيضاً - عند حدوث تغيرات نوعية في المجتمع أو الطبقة المهيمنة خصوصاً، إذ تجد الطبقات الجديدة السائدة ذاتها أمام تحديات عصبية تفرض عليها تسويق سيادتها وتوكيد مواقفها وترسيخ مواقعها، وأن تظهر للآخرين على أنها هي الأصح وهي الأحرص على المصلحة العامة، ذلك أن «كل طبقة تحتل مكان طبقة كانت سائدة قبلها، مضطرة ولو بمجرد تحقيق أهدافها إلى تمثيل مصلحتها على أنها المصلحة المشتركة لجميع أعضاء المجتمع، يعني أنه ينبغي لها



أن تعطي أفكارها شكل العموميّة، وأن تمثلها على أنّها الأفكار الوحيدة الصّالحة بصورةٍ شاملةٍ»<sup>(٣٣)</sup>.

والحقيقة أنّنا لا نستطيع هنا الفصل بين الجانب الشعوري والجانب اللاشعوري في تأثير الأيديولوجيا في الأفراد الذين يعتنقونها، ذلك أنّ «بنية كل أيديولوجيا هي - بنية - انعكاسيّة باستدعائها الأفراد كفاعلين باسم ذاتٍ وحيدة ومطلقة، أي في المرأة، وهي مزدوجة الانعكاس، وهذا الازدواج في الانعكاس هو الذي يكوّن الأيديولوجيا ويؤمّن سيرها - إذ إنّ - كلّ أيديولوجيا - بحدّ ذاتها - ممرّكة، والذّات المطلقة تحتل المكان الوحيد في المركز، وتستدعي حولها الأفراد الذين لا حصر لهم كفاعلين أو ذوات»<sup>(٣٤)</sup>.

ولأنّ هذه البنية الانعكاسيّة المزدوجة للأيديولوجيا - كما يرى لويس التوسر - ١٩١٨ . ١٩٩٠ م تقوم في الوقت ذاته بـ:

«١. استدعاء الأفراد الفاعلين.

٢. إخضاعهم للذات.

٣. الاعتراف المتبادل بين الفاعلين والذّات، وبين الفاعلين أنفسهم، وفي النهاية تعرف الفاعل على نفسه.

٤. الضّمانة المطلقة بأنّ كلّ شيء هو كذلك، وبأنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، شرط أن يعترف الفاعلون بما هم عليه، وأن يتصرّفوا على هذا

---

٣٣. كارل ماركس وفريدريك إنجلز: الأيديولوجيا الألمانية. ص ٥٧.

٣٤. لويس التوسر: الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية. ضمن كتاب: دراسات لا إنسانية من لويس

الأساس»<sup>(٣٥)</sup> فإنَّ اللبس يبدو جلياً بأنَّ آليَّةَ التَّأثُّر الأيديولوجي آليَّةٌ لاشعوريَّةٌ صرفٌ، حيث يسير الفاعلون وحدهم منقادين للأيديولوجيا بصورةٍ لا شعوريَّةٍ خاليةٍ من الوعي، والحقيقة أنَّ هذه الآليَّة كما أشرنا آليَّةٌ مزدوجة تضمُّ الجانبين الشُّعوري واللاشعوري في آنٍ معاً، بحيث يتعشَّر الفصل بَيْنَهُمَا، ويتجلَّى ذلك إذا نحن حلَّلنا ما تنطوي عليه عبارة الفاعل من دلالات، والتي تتضمن حسبما يشير التوسر معنيين اثنين:

- ١ . ذاتيَّة حرَّة: مركز مبادرات فاعل ومسؤول عن أعماله.
- ٢ . كائنٌ مستعبدٌ، خاضع لسلطة عليا، أي عديم الحرية إلا فيما يخص الموافقة بحريَّة على خضوعه»<sup>(٣٦)</sup> فالذَّاتيَّة الحرَّة باعتبارها مركز مبادرات مسؤولاً، يعني انقياده للتأثير الأيديولوجي عن وعي وإدراك، وهذا ما يمثل الجانب الشُّعوري، أمَّا الفاعل بوصفه كائناً مستعبداً مسلوب الحرية، فهو المنقاد لا شعورياً للأيديولوجيا، إلا إذا وافق بحريَّة على خضوعه، فإنَّ آليَّة التَّأثُّر الأيديولوجي فيه تكون مزدوجة، أي شعوريَّة ولا شعوريَّة.
- إنَّ التَّأثُّر الشُّعوري للأيديولوجيا هو التَّأثُّر الأخطر لها من الناحية الأخلاقيَّة لا من ناحية نتيجة التَّأثُّر وإن كان التَّأثُّر اللاشعوري يعوض فرق الخطورة من ناحية التَّيْجَة.
- التَّأثُّر الشُّعوري للأيديولوجيا يعني من طرفٍ مقابلٍ وعلى نحوٍ مباشرٍ التَّأثُّر أو التَّأثُّر الإرادي، أي إنَّ المرء يقرَّر بإرادته ووعيه أن يستخدم وعيه وفكره

المسبق في فهم الحقائق المتلقاة أو في الانسياق لمتطلبات الأيديولوجيا التي ينتمي إليها أراعياً كان أم مرغماً في انتمائه.

نحن أمام ثلاثة مستويات أو مناحٍ أو اتجاهاتٍ لتأثير الأيديولوجيا الشعوري. مستويان من الذات إلى الخارج أو الآخر انطلاقاً من بنية الوعي الأيديولوجي المهيمنة على فكر صاحبها، ومستوى من المنظومة أو البنية الأيديولوجية السائدة إلى داخل الذات.

المستوى الأكثر وضاعة وقذارة بيّن هذه المستويات هو مستوى التحريف الإرادي للحقائق وتزويرها مع العلم بأنّها بعلم الفاعل خاطئة أو باطلة أو غير صحيحة من أجل خدمة أغراض أيديولوجية ينتمي إليها صاحب التحريف والتزوير وقلب الحقائق. ومن أشهر الأمثل على ذلك ما فعله العالم الألماني إرنست هيكل . ١٩١٩ . E. Heackel الذي «زوّر مرّة صورة لجنين حيوان حتّى تبدو قريبة الشبه بجنين الإنسان، فيثبت بهذا نظريته في التطور»<sup>(٣٧)</sup>. ومن الأمثلة الساطعة على ذلك أيضاً «تنشيط أجهزة المخبرات الأمريكية لدراسات علم الأناسة - Anthropology حول الشعوب المتخلفة»<sup>(٣٨)</sup>. متطلعة من وراء ذلك إلى أغراض متعددة لعلّ أهمّها تعزيز هيمنتها على هذه الشعوب بتكريس تخلف هذه الشعوب عبر آلية داخلية نابعة من اعتقاد هذه الشعوب بأنّها متخلفة بالطبيعة والخلقة ولن ينفعها سعي ولا جهد للخروج من هذه البوتقة.

لهذان مثالان وحسب وليسا الوحيدين أبداً فما جهلنا منها أكثر مما علمنا، وما علمنا ذلك أصلاً إلا بالمصادفة فمن يفعل هذه الأفاعيل حريص

على عدم الانكشاف والانفضاح حتّى لا تنسف أعماله من أساسها. ولذلك فاليقين أنّه يوجد عشرات بل مئات ورُبّما مئات آلاف الحالات المشابهة من التزوير والتلفيق.

هنا أتساءل ويتساءل الكثيرون: هل يمكن أن نسمي ذلك تأثيراً أيديولوجياً في الباحث؟

نعم، هو تأثيرٌ بصيغةٍ من الصيغ، ولكنّه تمّ بوعي وإدراكٍ وتصميمٍ على التّزوير خدمةً للأيديولوجيا التي ينتمي إليها. لولا إيمانه بأيديولوجيته لما سعى لإثباتها... ولكنّه سعى لإثباتها بالتّزوير. وهنا يبرز السؤال الأكثر أهميّةً وخطورةً: ألا يعني ذلك أنّه يدرك أنّ أيديولوجياته باطلةٌ ويحاول إثباتها بالتّزوير والتّحريف؟

إنّنا أمام حالٍ عجائبيّةٍ للإنسان. من المفترض منطقيّاً أن يجب فيمن يصل إلى هذه النتيجة، أنّه لولا بطلان ما يدعيه من حقائق لما اضطرّ للتّزوير والتّحريف لإثبات مزاعمه. ولكنّه مع ذلك يصرّ على أنّ ما يؤمن به حقيقة صادقة وشوئيّة... إنّها نقطة الانطلاق التي بدأنا بها لدى الحديث على آليّة التأثير.

على أيّ حال، هي مسألة نفسيّةٌ لم تفت علماء النفس من جهة المبدأ لا الصورة. علماء النفس لم ينتبهوا إلى السّياق الأيديولوجي في هذه المسألة وإنّما انتبهوا إلى آليّة النفس في فهم الحقائق وقبولها ورفضها. ولهذا موضوع ليس يعنينا هنا الآن.

ثمّة مستوٍ آخر موازٍ في الانطلاق والاتجاه ولكنّه لا يقوم على التّزوير الإراديّ المسبّق التّصميم، إنّهُ خضوعٌ وتبعيّةٌ للأيديولوجيا من جهة الفهم

والتفسير والشرح والتوضيح، قد يلجأ إلى التزوير ولكنّه غير مقصودٍ أو قل غير مقررٍ مسبقاً بقصد التزوير والتحريف، ولكنّه لا يختلف عنه في المبدأ. قبل نحو أربع سنوات زارنا مندوب الرئيس السُوفيّتي ميخائيل چورباتشوف لشرح لنا طبيعة التّغيرات التي يشهدها الاتحاد السُوفيّتي وأقلقت اليساريين في أنحاء العالم. لا أعرف ماذا يوجد في ضمير هذا المندوب ولا ماذا يوجد في ضمير چورباتشوف ولكنّي على يقينٍ منذ ستّ سنواتٍ عندما استلم چورباتشوف السلطة وبدأ حملة التّطهير بأنّه يقود الاشتراكيّة والاتحاد السُوفيّتي إلى الهاوية والانهيار وقد تبعت هذه التّغيرات لحظةً بلحظةً وسجّلتها على دفاتر مذكراتي لأبرهن بها لدى أيّ حديثٍ... كنت على يقين من ذلك. ولكنّ المحاورين أعجبوا بتحليل مندوب الرئيس السُوفيّتي ورأوه إنقاذاً للاشتراكيّة والشيوعيّة، فقلت له:

- إن ما يقوم به الرئيس چورباتشوف حملة إصلاحيّة رائعة ستنتهي بتفكيك الاتحاد واختيار السّياسة الاشتراكيّة.

ثار عليّ الكثيرون احتجاجاً ورأوا ذلك جهلاً وعدم فهمٍ لما يفعله العبقرى چورباتشوف الذي جاء لينقذ انظام الاشتراكية وحركات تحرّر الشعوب وهلم شفتاً ولفطاً...

لا أريد أن أطيل، أريد فقط لفت الانتباه إلى طبيعة التّأثير السُعوري للأيدولوجيا في المستوى الثّاني الذي لا يقوم على التزوير والتّحريف المقرر مسبقاً... إنّهُ قولبة العقل والفهم ومنهج التّفكير بوعيٍّ وإدراكٍ لعدم فهم شيءٍ أو لفهم شيءٍ بطريقة محدّدة تخدم الأيدولوجيا من وجهة نظر الفاهم أو المُدرك.



قبل أن أنتقل إلى المستوى الثالث لا بُدَّ من إيضاح مسألةٍ مهمّةٍ في هذا الصّعيد وحتّى الصّعدين؛ السّابق واللاحق. الأيديولوجيا أو العقيدة أو المنظومة الفكرية التي يحملها المرء وتبلور ببنية أيديولوجيا وطريقة تفكير لا علاقة لها أبداً بطريقة التفكير والفهم والتأثير والتأثر وفق ما سبق وما سيأتي، المسألة منوط بالذات، بالشخص، بالإنسان... مدى مهارة الإنسان وبراعته ومنطقه ومنهجه وثقته في نفسه هي التي تفعل وتنفعل... المسألة شخصية ذاتية وليست موضوعية. ولذلك توجد فروقٌ فرديةٌ بعدد الأفراد في البنية العقائدية الواحدة... كل واحدٍ يفكر بطريقته ويتأثر ويؤثر بطريقته.

في المستوى الثالث من التأثير الشعوري للأيديولوجيا نجدنا أمام الخضوع الإرادي، الاختياري للأيديولوجيا السائدة في المجتمع المتمثلة في منظومة العادات والتقاليد والأعراف وما جرى في حكمها، ولهذا ما بدأنا به حديثنا.

كلّ إنسانٍ ملزّمٌ شاء أم أبى بالخضوع لمنظومة المجتمع الذي يعيش وعاداته وتقاليده وأعرافه حتّى ولو كان غير مقتنعٍ بها أو غير قابلٍ لها. ولهذا الإلزام ليس قسريّاً بقدر ما هو حاجةٌ تعايشيةٌ لا غنى عنها. يستطيع أيُّ إنسانٍ أن ينشر ويحرق هذا التقليد أو ذاك ولكنّه بالمحمل قابلٌ وملتزمٌ بالمنظومة جملةً قبولاً والتزاماً إرادياً. يستطيع أن يحرق تقليداً وأكثر ولكنّه لا يستطيع أن يحرق المنظومة أو البنية، وليس من مصلحته أصلاً أن يفكر بهذه الطريقة.

تغيير المنظومة أو البنية هو تغيير للمجتمع كلّهِ ولهذا محالٌ أن يكون بَيْنَ يومٍ وليلةٍ ومحالٌ أن يكون على يد شخص... يحتاج إلى عملية تفاعلية قد تمتد مئات السنين وقد تفلح وقد لا تفلح إذا كان هناك قرار بتغييرها.



ومع ذلك وجدنا كثيراً من الأشخاص ارتفع طموحهم إلى مستوى التفكير في قلب مفاهيم مجتمعٍ وقيمه وعاداته وتقاليده... ولم نسمع عن نجاح أحدٍ أبداً في ذلك. مثل هذا الطموح موجودٌ في رأس أيِّ مراهقٍ أو ثائرٍ متمردٍ يتحرَّك بانفعالات المراهقة لا بمقتضيات التفكير المنطقيِّ أو العلميِّ.

يبدو التأثير الشعوري للأيديولوجيا من ناحية هذا المستوى على نحو جليٍّ لدى الأشخاص الذين ينتقلون من مجتمعٍ إلى مجتمع. سرعان ما يتقوّلِب الشَّخص مع مقتضيات العيش في المجتمع الجديد مهما تباعدت عن شروط عيشه في مجتمعه الأصلي. علماء النفس وعلماء الاجتماع يسمون ذلك تأقلاً أو انسجماً، ولا بأس في ذلك، ولكن يمكن أن نسميه أيضاً خضوعاً شعورياً، إرادياً لمقتضيات أيديولوجيا المجتمع الجديد. ولا يخلو ذلك كلُّه من تدخُّل عوامل لاشعوريَّة أو تأثير لاشعوري للأيديولوجيا. فما التأثير اللاشعوري للأيديولوجيا؟

بن السعيد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي جعل العلم  
وسيلة للتقوى والنجاة

## الفصل الخامس

النائب الدكتور عمري للأيزولوجيا



الأيدولوجيا كما يقرّر إنجلز «تعني  
مجموعةً من الأفكار التي يحيا الناس الذين  
نتابع هذه السيرة الأيدولوجية في أذهانهم،  
يقرر في التحليل الأخير مجرى هذه السيرة  
فهذه الواقعة تبقى مجهولةً منهم كلياً».

#### رشيد مسعود

لعلّ الجانب اللاشعوري هو الأكثر والأشدّ تأثيراً في الباحث، ذلك أنّه  
يترافق مع الجانب الشعوري على نحوٍ يصعب فيه الفصل بينهما من جهة أولى،  
ويعارس تأثيره مستقلاً من جهة ثانية. لأنّ إيمان الإنسان بحقيقةٍ ما يجعله ينظر  
إلى كلّ الظواهر بمنظار هذه الحقيقة التي يؤمن بها، بصورةٍ لا شعوريةٍ، سواءً  
آمن بهذه الحقيقة عن قناعةٍ وبرهانٍ ووعيٍّ، أم تلقاها مع ما تلقى من ميراثٍ  
فكريٍّ. وللايدولوجيا أهميتها الكبيرة والخطيرة في حياة الإنسان «فهى تزوده  
بتوجيهٍ إجماليٍّ في حياته وتضع أمامه الأهداف والمهام، مثلما تمدّه بالدوافع على  
تحقق هذه الأهداف وإنجاز تلك المهام»<sup>(٣٩)</sup>.

ولذلك يجد الباحث نفسه مدفوعاً بدوافعٍ لاشعوريةٍ مصدرها أيدولوجيته  
الرأسخة في أعماق عقله الباطن، إلى قراءةٍ مختلفٍ ظواهر الكون والحياة بما يتفق  
وحقائقه التي يعتنقها من غير أن يدري بالضرورة حقيقة هذه الدوافع. ذلك أنّ  
الأيدولوجيا كما يقرّر إنجلز «تعني مجموعة من الأفكار التي يحيا الناس الذين

نتابع هذه السيرة الأيديولوجية في أذهانهم، يقرّر في التحليل الأخير مجرى هذه السيرة فهذه الواقعة تبقى مجهولة منهم كلياً»<sup>(٤٠)</sup>.

وليس هذا فحسب، بل إنّ المفكر الذي ينقاد متأثراً بحامله الأيديولوجي، قد يعتقد في كثير من الأحيان أنّه يعي العوامل التي تدفعه وتقود خطاه، فيما هو في حقيقة الأمر يجهلها. ولقد أبان إنجلز هذه الحقيقة بصريح العبارة في رسالته الشهيرة إلى مِهْرِنِغ في الرَّابِع من تموز عام ١٨٩٣م. إذ قال: إنّ «الأيديولوجيا هي عملية يمارسها فعلاً المفكر المدعي بوعي ولكنّه وعي زائف، ذلك أنّه يظل يجهل القوى المحركة الحقيقية، ولولا ذلك لما كانت هذه العملية عملية أيديولوجية»<sup>(٤١)</sup> وكأنّه يجعل بذلك من التأثير الأيديولوجي آلية لا شعورية محض يظل تأثيرها مخفياً عن الإنسان، حتى إذا علمه لم يعد تأثيراً أيديولوجياً. وهذا أمر فيه خلاف.

وبناء على ذلك فإنّه من كبير «الخطأ أخذ القول الأيديولوجي بالحسبان على محض مستوى مضامينه الصريحة - ولنقل على مستوى ما يدل عليه - في حين أنّ من المناسب تحليله بوصفه شبكة من ضروب الدال المحددة في وجه التقريب... وهذا من الصّحّة بحيث إنّ أيّ أيديولوجيا هي على الغالب تفصل الموضوعات والرموز، التي كانت موجودة... تفصلاً جديداً مختلفاً... والسبب في واقع الأمر أنّ كل أيديولوجيا تؤمّن نسبةً مختلفة من العلاقات بين ضروب الدال وما تدل عليه»<sup>(٤٢)</sup>.

٤٠. رشيد مسعود: مادة الأيديولوجيا. ص ١٦١.

٤١. ميشيل فادية: الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية. ص ٢.

٤٢. اندره آكون: الأيديولوجيا. ضمن كتاب المجتمع الحديث. ترجمة وجيه أسعد. وزارة الثقافة. دمشق.

أمّا ما ينتقل آلياً فهو بنية تفكير الأمة بجملتها؛ والعادات، والأعراف، والتقاليد، والأخلاق، والبنية النفسيّة، والميول، والأهواء، والذائقة الجماليّة، والتفضيلات، وأنماط السلوك، واللباقات الاجتماعيّة، وكلّ ما يندرج في هذا السياق. وكلّ ذلك ينتقل باللغة في كلّ مستوياتها؛ المفردات، والنحو، والتراكيب، والأساليب، والآداء. واللغة عامّة هي حامل هذه العناصر من الثّراث. وبهذا المعنى فإنّ انتقالها من جيلٍ إلى جيلٍ يتمّ آلياً، أي من دون تدخّل الرّغبة أو الإرادة أو الاختيار، ولذلك يمكن القول إنّ هذا الانتقال الآليّ لهذه العناصر من الثّراث إنّما يتمّ على الرّغم من إرادة الإنسان. وإلى جانب اللغة فإنّ الممارسة الاجتماعيّة تلعب الدّور المكملّ والمساعد لنقل هذه العناصر نقلاً آلياً من جيلٍ إلى جيلٍ. وزيماً تلعب المورثات البيولوجيّة دوراً في ذلك.

المقصود بالانتقال الآليّ هو الانتقال المباشر من دون تدخّل الإنسان القصدي في النّقل. ولا ينبغي أن يفهم من الآليّة أنّها تؤدّي إلى نقل هذه العناصر كاملةً شاملةً من دون تغييرٍ من جيلٍ إلى جيلٍ، لأنّ هذه الآليّة انتقائيّة تلعب الطّروف المرحليّة والمعطيات التّاريخيّة والشّروط الرّاهنة الدّور الحاسم في أسلوب نقل هذه العناصر والاختيار بينها. ولهذا السّبب نجد دائماً أنّ أنماطاً محدّدة من هذه العناصر تظهر في حالات الرّخاء، وأنماطاً أخرى تظهر في حالة الضّيق، وغيرها تظهر في حالة الحرب، وغيرها تظهر في حالة التخلّف وهلمّ جرّاً...

هذا يعني، فيما يخصّنا هنا، ثلاثة أمور على الأقلّ:

أول هذه الأمور أنّ البنية الفكرية لأيّ أمة تتضمن بالضرورة مختلف التناقضات والدّرجات في كلّ عنصر من العناصر السّابقة المكوّنة للبنية الفكرية





من الأدنى إلى الأعلى، فهي تتضمن على سبيل المثال؛ من أدنى مراحل الانهزامية إلى قمة الاستبسال والتضحية، من حضيض الجبن إلى ذروة البطولة، من شديد اللامبالاة والاستهتار إلى أعلى درجات الإحساس بالمسؤولية... وهكذا دواليك حتى تأتي على كل عنصر من عناصر هذه البنية من بنى التراث. ويظهر كل مستوى أو درجة من هذه الدرجات ظهوراً عاماً في المجتمع أو الأمة في المرحلة المناسبة أو المرحلة التي تتطلبه. ومعنى الظهور العام هو سيادة هذا المستوى أو الدرجة لدى الغالبية العظمى من أفراد المجتمع أو الأمة، مع عدم نفي وجود حالات خاصة دائماً في كل مرحلة. وفي هذا ما يفسّر لنا كثيراً من الظواهر التي تعيشها الأمم أو تمرّ بها في مراحل مختلفة من سيرورتها التاريخية كالثورات والانتفاضات والقنوط والاستسلام وغيرها كثير...

الأمر الثاني أنّ هذه البنية ليست هي ذاتها التي تكون كل الأمم وإنما لكل أمة بنيتها الفكرية الخاصة التي تفتقر بها عن غيرها من الأمم، وهنا يمكن أن نفهم قول **كبلنج وإرنست رينان**: «الشرق شرق، والغرب غرب»، وقبلهما قول **أرسطو**: «إذا ظهر فيلسوف في الشرق صار نبياً، وإذا ظهر نبي في اليونان صار فيلسوفاً». وهنا أيضاً يمكن أن نفهم القول الشائع بأنّ «الشرق عاطفي، والغرب عقلائي»، وهنا يمكن أن نفهم أيضاً لماذا يعلو الحس الاجتماعي في الشرق، ويدنو في الغرب. ولماذا تحكم النفعيّة والدّرائعيّة والفرديّة العالم الغربيّ بينما ترتفع راية الرّوح الجماعيّة أو الجمعيّة في العالم الشرقي. وإذا نظرنا إلى الشرق وحده، أو إلى الغرب وحده، وجدنا أنّ أحكامنا لا تنطبق بالدقة ذاتها على أيّ منهما انطباقاً كاملاً، لأنّنا سنجد أنّ في الشرق أمماً، وفي الغرب أمماً، وكلّ أمة لها خصوصيّتها التي تميّزها عن غيرها من أمم عالمها الشرقي أو الغربيّ.

الأمر الثالث أن انتقال هذه العناصر لهذا الانتقال الآلي المثبت علمياً على نحوٍ يقطع دابر الشك والجدال، يجعل من الأسئلة المطروحة آنفاً عن الموقف من التراث بالقبول، أو الرّفْض، أو الاختيار، أسئلةً زائفةً تقود إلى أجوبةٍ زائفةٍ، أي إنها لا تقدّم أيّ حقيقة، ولا تنجلي عن أيّ معرفةٍ تحقّق أدنى حدود المعقوليّة أو المصدقيّة. لأنّ التراث وفّق هذه الآليّة من الانتقال لا ينتظر من أحد أن يقرّر ما يختار وما يرفض، ولا أن يقرّر ما هو صالح وما هو غير صالح ليقوم باختيار الصّالح ورفض غير الصّالح من أجل فرضه على المجتمع أو الأُمّة، ولو كان الأمر بهذه السّهولة وهذا اليسر لما وجدنا أُمّة تتخلّف وأُمّة تتأخّر، ولما اختارت أُمّة أن تكون متخلّفة، وكانت من ثمّ كلّ الأمم في الصّف الأول من التّقدّم والتّحضّر والقوّة.

وعلى افتراض تحقّق ذلك تحقّقاً فرديّاً، وهو أمر ممكن جدّاً، وواقع فعلاً، فإنّ هذا التّحقّق الفردي لا يمكن أن يُعمّم، ولا يمكن أن يفرض على المجتمع أو الأُمّة أن تلتزم بهذه الخيارات لأنّها تظلّ دائماً منغمسةً في الآليّة الانتقائيّة التلقائيّة التي تمارسها بنيتها الفكرية ذاتها على أفراد الأُمّة، ورُبّما يصحّ هنا استخدام اصطلاح «روح الأُمّة» الذي أطلقه هيجل. فروح الأُمّة بمعنى من المعاني هي بنيتها الفكرية، وروح الأُمّة هي التي تمارس سيادتها على أفرادها، وتفرض عليهم شروط تحقّقها وظروفها ومعطياتها.

وهذا في حقيقة الأمر ما يفسّر لنا ظاهرة ازدواجيّة المثقّف في الأمم المتخلّفة بيّن التّنظير والتّطبيق، بيّن النّظرية والممارسة، بيّن الفكر والعمل... فالغالبية العظمى من المثقّفين يقعون غالباً في التّناقض بيّن ما يقولون وما يفعلون، يطالبون بالموضوعيّة ولا يمارسونها، ينظرون في الأخلاق ويتعدون عنها

في الممارسة... والسبب في ذلك في حقيقة الأمر لا يعود إلى حبّ الوقوع في التناقض وإنما إلى التناقض الذي يعيشونه على الرغم من إرادتهم، فهم فعلاً يسبقون الواقع في وعيهم وفهمهم، ولكنّ الواقع أكبر منهم وأقوى، وروح الأمة، أو بنيتها الفكرية المتخلفة تعشش في عقولهم، وتسري في دمائهم. ولهذا ما يفرض عليهم أن يعيشوا من حيث لا يدرون هذا الضرب من فصام الشخصية. وأيسر الأمثلة على أقربها هو أنّ الواحد منا ينظر ساعات في أهمية النظافة، وضرورتها، ولا يكاد ينتهي من تنظيره حتّى يلقي بعقب السيّجارة أو الورقة أو المندبل الورقي على الأرض من دون أن ينتبه إلى فعلته!!

لهذا يفرض علينا توضيح أمرين هنا على الأقل أوّلهما أننا لا نسوغ التناقض، ولا ندعو إلى قبوله، وإنما نحن نفهمه في سياقه المنطقي والتاريخي ونفسّره. وينتج عن ذلك مباشرة أننا لا نقبل بالاستكانة للواقع المتخّم بالنقص والتشوّه والخلل، ولا يجوز أن نقبل بذلك. ولكن من البدهة بمكان أنّ أولى خطوات البناء هي دراسة الأرضية التي سيشاد عليها البناء ومعرفة قدرتها على الحمل والاحتمال والمقاومة. وثاني الأمرين أنّه لا يمكننا نفياً إمكانية أن يلعب الأفراد أدواراً متفاوتة في صياغة أو تعديل البنية الفكرية للمجتمع أو الأمة، ولكن من هم هؤلاء الأفراد؟ وما خصائصهم؟ وما الذي يسمح لهم بذلك؟ وهل يحقّ ذلك لأيّ واحد؟ وهل سيقبل المجتمع أو الأمة ذلك؟ وما المدى الزمني الذي يحتاجونه لفعل ذلك؟ وما العناصر القابلة لهذه الصياغة أو التّغيير أو التّعديل؟؟ إنّها مشكلة أخرى كبيرة، ربّما تستحقّ وقفةً خاصّة مطوّلة، ولكنّها على أيّ حال لا تقدّم ولا تؤخّر كثيراً

في مناقشتنا الآن.



الحقيقة التي لا بُدَّ من إقرارها هنا الآن وقبل الانتقال إلى الفاعليَّة اللاشعوريَّة للأيديولوجيا في الذات بوصفها أيديولوجيَّة فرديَّة أو بوصفها بنية فكريَّة شخصيَّة... هو أنَّ التأثير اللاشعوري الذي تمارسه الأيديولوجيا بوصفها بنية تفكيرٍ جمعيٍّ، أي هويَّة جمعيَّة واجتماعيَّة وقوميَّة أو ما جرى مجراها على نحو ما سبق إنَّما هي ممارسة ضروريَّة مهمة تحقِّق مجموعة من الوظائف والمهام من أبرزها:

أولاً: نقل الهوية الجمعيَّة من جيل إلى جيلٍ بحواملها ومقوماتها الاجتماعيَّة والعربيَّة والدينيَّة على شكل عادات وتقاليد وأعراق وقيم ثقافيَّة وأخلاقيَّة واجتماعيَّة ونفسيَّة وتربويَّة... مع تغيرات طفيفة في كل جيل تكون حصيلة فاعليَّة الجيل السابق.

ثانياً: هذه الفاعليَّة الأيديولوجيَّة تمارس تأثيرها في أفراد الجماعة على نحوٍ لاشعوريٍّ في نقل هويَّة الجماعة من جيلٍ إلى جيلٍ تقوم بحفظ الهوية وحمايتها ورُما تحصينها ضمناً كما سنبين في العناصر التَّالية.

ثالثاً: في الوقت ذاته فإنَّ هذه السُّلطة اللاشعوريَّة للأيديولوجيا على أفراد الجماعة تقوم بتحقيق تماسك الجماعة والتحامها واتحادها حول مقومات وجودها المعنويَّة.

رابعاً: وفي سياق ذلك فإنَّ التَّأثير اللاشعوري للأيديولوجيا في أفراد الجامعة الحاملة لهذه الأيديولوجيا يقوم بوظيفة أخرى هي تحقيق تمايز الجماعة عن غيرها من الجماعات واستقلالها عنها بمقوماتها المعنويَّة الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة وغيرها. وفي هذا ما يكشف لنا عن تمايز الجامعات التي تعيش في مجتمع واحد تحت أيِّ سقفٍ ومستوٍ... كاختلاف مجتمعين متجاورين أو جماعات ضمن مجتمعٍ واحدٍ.

**خامساً:** وفي إطار التمايز السابق تتحقق بفضل التأثير اللاشعوري للأيديولوجيا وظيفة أخرى وهي إعطاء الجماعة خصوصيتها من خلال خصائصها التي تنقلها من جيلٍ إلى جيلٍ وتحافظ عليها في إطار الجيل نفسه.

**سادساً:** الوظيفة السادسة للتأثير اللاشعوري للأيديولوجيا هي فرض الاندماج معها على أفرادها وتماهيهم معها ومع بعضهم بعضاً. إن سلطة الأيديولوجيا اللاشعورية هنا هي بمثابة الخيط الذي يربط أفراد الجماعة ويربطهم بنسيج واحد، ليدو الجميع على اختلافاتهم وفردياتهم كأنهم نسيج واحد.

لهذا لا يعني أن السلطة اللاشعورية للأيديولوجيا على مستوى العقل الجمعي كلها إيجابيات وضرورات. أبداً، فإن السلطة اللاشعورية للأيديولوجيا بقدر ما هي حامل لهوية الجماعة وتماسكها وخصوصيتها... فإنها تنقل بالطريقة ذاتها وبالقدرة ذاتها عيوب المجتمع من جيلٍ إلى جيلٍ أيضاً، وإن كان ذلك يكون أخطر ما يكون في حالة تخلف المجتمع فإن السلطة اللاشعورية للأيديولوجيا تمارس تأثيراً تكريسياً للتخلف يصعب على أبناء الجماعة وخاصة الراغبين في التغيير تجاوزه، فإنهم يلاقون عنثاً وصدوداً مدمراً في أغلب الأحيان وتنتهي محاولاتهم بمساوئة غالباً.

أما في المجتمعات المتقدمة المتحضرة فإن عجلة النمو ومغرياته تكون أكبر بكثير من سلطة الأيديولوجيا الشعورية واللاشعورية عليها ولذلك يتم تجاوز المعوقات بسهولة أكبر بكثير عما هي عليه الحال في المجتمعات المتخلفة.

ما زلنا في إطار التأثير اللاشعوري للأيديولوجيا في أفراد الجامعة بوصفها أيديولوجيا بنية اجتماعية، أيديولوجيا جمعية لا فردية. وفي الإطار لا بُد من الإشارة أيضاً إلى مسألة مهمة أخرى ختامية وهي حيوية العقل الجمعي وتفاعله



مع التغيرات التي تطرأ من جيلٍ إلى جيلٍ، فكلُّ جيلٍ يترك بصمةً في البنية الأيديولوجية للجماعة من خلال المبدعين الكبار على نحو الخصوص في مختلف الميادين، هم الذين يتركون بصمتهم في التغير الاجتماعي والقيمي... ولكنَّ مهما بلغت الإضافات والبصمات فإنها تظل تدور في فلك العقل الجمعي أو الأيديولوجية الجمعية للجماعة، ولذلك تجد أخلاق العرب هي هي منذ مئات السنين، وأخلاق الأوروبيين هي هي منذ مئات السنين، وإنما تكون التغيرات الكبرى ظرفية غالباً ما تتلاشى مع الوقت لتتماهى مع الأصل على نحو ما.

لا تختلف سلطة الأيديولوجيا اللاشعورية على الفرد عما هي عليه في سطوتها اللاشعورية على أفراد الجماعة بوصفها أيديولوجيا جمعية، أو عقلاً جمعياً. بدل العقل الجمعي، بدل البنية الجمعية ضع العقل الفردي أو الشخصي أو الذات، ويمكن تعميم ما سبق عليه من دون تردّد. ولكننا نعلم أنّه كلما اتسع المفهوم ضاق الماصدق، وكلما ضاق المفهوم اتسع الماصدق. أعني ما هو قابل للتعميم على الجماعة أقلُّ تعقيداً وتنوعاً مما ينطبق على الفرد. ولذلك من البدهة بمكان أن يكون الفرد أكثر تنوعاً وأكثر خصوصية.

لنتذكر ما ذكرناه عن التأثير الشعوري للأيديولوجيا في الذات. لنسحب ذلك على التأثير اللاشعوري لها في الذات. هناك كانت الذات، كان الفرد بإرادة وقرارٍ مسبقٍ يفهم الخارج والآخر بما ينسجم مع هويته الأيديولوجية، هنا في التأثير اللاشعوري تتم العملية بالية لاشعورية لا الذات تعيها ولا هي تسيطر عليها.

إنَّ الذات من وعي ومن دون انتباه أو إدراك سيان تخضع لفاعلية الأيديولوجيا وسلطتها التي تمارسها على نحو لاشعوري في الفهم والإدراك



والتفسير، ولذلك قلنا فيما سبق إنَّ التأثير الشعوري هو الأخطر من الناحية الأخلاقية لأنَّ الفاعل يفعل ما يفعل من تحريفٍ وتزويرٍ بإرادةٍ وقرارٍ مسبقٍ، بينما التأثير اللاشعوري هو الأخطر من جهة الفاعلية والتأثير، يفهم الإنسان الموضوع على ضوء ما ينسجم مع عقيدته وأيديولوجيته من دون أن يدرك ذلك فيقع في وهم الصوابية من دون أن يقبل الاعتراف بذلك لأنَّه على يقينٍ ضمنيٍّ بأنَّه فهم ما فهم وقبل ما قبل من دون تأثير خارجي فيما هو موهوم بقناعاته المسبقة التي تشكل بنيته الأيديولوجية... وهنا الخطورة الكبرى والحقيقية... والحقيقة الأخطر من ذلك أنَّه لا سبيل للخلاص من هذا الوهم.

د. السيد أحمد  
أبيدولاجيا والعلم

## الفصل السادس

الفرق بين الأيديولوجيا والعلم





المرمى العلمي موضوعي كوني أحادي  
المعنى (ما يثبت معناه مهما اختلفت أشكاله):  
أنّه يريد الوصول إلى الواقع في بناءه وفي وظائفه،  
كما هو. والمرمى الأيديولوجي يبين واقعاً على  
ما يُتمنى لو يكون، والأيديولوجيا تبين عن مرمى  
معياري يزعم نفسه موضوعياً. ومن هنا كان  
الإيهام صفتها الجوهرية، إنها (رؤية) دلالية معاً  
لحقيقة معينة لحالٍ واقع، وفي الوقت ذاته  
لقصد يضفي قيمة ولكنه يقلب الحقيقة.

### جيرار بوي

سبق وبيننا المقصود بالأيديولوجيا، وَحَتَّى نبيّن الفرق بَيْنَها وبَيْنَ العلم لا بُدَّ  
أن نفصح عن المقصود بالعلم، والحق أن تعريف العلم مازال حَتَّى الآن مثار  
خلافٍ وإشكالاتٍ عديدةٍ، ولن نخوض غمار تفاصيل هذه الخلافات، ونكتفي  
بأن نعرف العلم بأنّه «معرفة الشّيء على ما هو به»<sup>(٤٣)</sup> «وأصله أن يقال فيما  
يعرف وجوده وجنسه وكيفته وعلته»<sup>(٤٤)</sup> وبهذا التعريف نستطيع أن ندرج العلوم  
الاجتماعية في ميدان العلم إلى جانب العلوم الدقيقة الرياضية والمنطقية والعلوم  
التجريبية والطبيعة، على أنّنا لا بُدَّ أن نشير إلى «أهم الخصائص التي يجب أن  
تتوافر في التفكير العلمي وهي:

٤٣ - أبو البقاء الكفوي: الكليات . وزارة الثقافة . دمشق ج ٣ . ١٩٨٢ م . ٢٠٤ .

٤٤ - م . س . ج ٤ . ص ٢٩٦ .

١ . دقة المفاهيم الواردة في الصياغة العلميّة

٢ . التّعميم

٣ . إمكان اختبار الصدق

٤ . ثبات الصدق

٥ . البناء النسقي<sup>(٤٥)</sup>.

ومن ذلك يبدو أنّ ثمة تقاطباً بيّن العلم والأيدولوجيا، لهذا التّقاطب تابع من أغراض كليهما ومراميه على أقلّ تقدير «المرمى العلمي موضوعي كوني أحادي المعنى (ما يثبت معناه مهما اختلفت أشكاله): أنّه يريد الوصول إلى الواقع في بناه وفي وظائفه، كما هو. والمرمى الأيدولوجي يبين واقعاً على ما يُتمنّى لو يكون، والأيدولوجيا تبين عن مرمى معياري يزعم نفسه موضوعيّاً. ومن هنا كان الإيهام صفتها الجوهرية، إنّها (رؤية) دلاليّة معاً لحقيقة معينة لحال واقع، وفي الوقت ذاته لقصد يضفي قيمة ولكنه يقلب الحقيقة»<sup>(٤٦)</sup>.

ولأن الأيدولوجيا تقتزن في الأغلب الأعم بتزييف الوعي، وقراءة الواقع قراءة متفكّة مع الأفكار المسبقة التي يعتنقها المرء فإننا نضيف لتوضيح الفرق بيّن العلم والأيدولوجيا حدّاً جديداً هو «الواقع. الذي يفترض في العلم السعي إلى بلوغه والتعبير عنه بقوانين، بيّنما يفترض في الأيدولوجيا تحريفه تبعاً لقيم معينة تؤدّ لو تجدها مدججة فيه»<sup>(٤٧)</sup>.

٤٥ . صادق جلال العظم: مناهج البحث في العلوم التجريبية. مطبعة خالد بن الوليد. دمشق. ١٩٨١م. ص ٦. ١٧٠.

٤٦ . جيار بوي: العلم والأيدولوجيا. ضمن كتاب الأيدولوجيا في العالم المعاصر. ترجمة صلاح الدين برمدا

. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٣م. ص ٤٢.

٤٧ . م. س. ذاته.



وبهذا المعنى يؤكّد باريون أنّ «الأيدولوجيا تقف حقاً على أطراف النقيض من روح العلم، وعلى أنّ الأنظمة أو المذاهب التي تدعي امتلاك معرفة كليّة ذات حقيقة مطلقة، يتعذر تأييدها العلمي، مثلما يتمتع دحضها من زاوية العلم، إنّها ليست من ثمار العلم، بل هي محتويات إيمان تدعي لنفسها الحقيقة المطلقة»<sup>(٤٨)</sup>.

كما يؤكّد ألتوسر أيضاً أنّ «نمط الإنتاج النظري للأيدولوجيا يختلف كل الاختلاف عن نمط الإنتاج النظري للعلم، وذلك يكون النمط الأول، لا يفعل حين يصوغ مسائله غير التعبير النظري عن الشروط التي لفقت لتكون مرآة نظريّة وتسويغاً عملياً في وقت واحد. لأنّ هذا الحل تفترضه سلطات ومقتضيات خارجة عن حدود النّظر، أي تفرضه مصالح دينيّة أو أخلاقيّة أو سياسيّة أو سواها»<sup>(٤٩)</sup>.

كما ذكرنا من قبل في تحديد مفهوم العلم فإنّ التعريف فيه ما يكفي لتوضيح المفهوم، ولكنّ كثيراً من المعرّفات لا يكتمل وضوحها من دون عرض خصائصها، بل قل لا تنفصل خصائص المعرّف عن التعريف، فالخصائص جزء من التعريف، ويصدق هذا على كثير من المعرّفات، ومنها العلم، فتعريف العلم يكفي للوقوف على معناه، ولكنّ الخصائص وإن ظهرت في التعريف فإنّ التفصيل فيها ضرورة في بعض الأحيان، لأنّها تزيد في التّحديد والضّبط وتزيد في التّوضيح.

٤٨ . ياكوب باريون: ما هي الأيدولوجيا؟ ص ٧٨.



٤٩ . لويس ألتوسر: من رأس المال إلى فلسفة ماركس . ضمن كتاب قراءة رأس المال . بإشراف لويس ألتوسر

. ترجمة تيسير شيخ الأرض . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٢ م . ج ١ . ص ٧٥ .

كما قد يختلف التعريف في مفرداته وأولوياته من مُعرِّفٍ إلى آخر، مع ضرورة الحفاظ على الوحدة المضمونيّة والدلاليّة، كذلك فإنّ الخصائص يمكن أن تختلف من محدّدٍ إلى آخر، ولكنّها يجب ضرورةً أن تكون دالّةً دلالةً صحيحةً وكافيةً. ولذلك، وبهذا المعنى، فإنّ ما سنحدّده من خصائص العلم والأيدولوجيا بالمقارنة ليس إلا تعبيراً عن وجهة نظر يمكن أن يكون هناك غيرها.

سبق وتكلّمنا في خصائص العلم منفردة لدى سعيّنا لتحديد مفهوم العلم في فقرة سابقة، سنعيد بناء هذه الخصائص من جديد بالمقارنة مع الأيدولوجيا على اعتبارين ثلاث:

**أولهما** أنّ خصائص العلم التي سبق وتحدّثنا فيها شبه متوافق عليها إلى درجة تقترب من الإجماع وإن اختلفت الأولويات والترتيب من باحث إلى آخر ويمكن أن تكون قاعدة انطلاق للمقارنة.

**ثانيهما** اعتبار كل منهما منظومة وإن كان هذا بالمجاز والتجاوز لا بالحقيقة فلا يمكن عدّ الأيدولوجيا نسقاً معرفيّاً موازياً للعلم مثل الفن، الفن نسق معرفي يوازي نسق العلم المعرفي أما الأيدولوجيا فلا يصح فيها هذا الوصف وقد سبق وبيّنا معنى الأيدولوجيا وانتهينا إلى أنّها بمعنى من المعاني هي الفاعليّة النفسيّة لمكونات الدّات المعرفيّة في آليّة تفكير هذه الدّات وتحليلها وتديرها وتفاعلها مع ذاتها والآخر والخارج.

هذه الخصائص فيما سيلي خمسٌ قد تزيد أو تنقص تبعاً لوجهة الرأي والنظر وقد يتغيّر الترتيب أيضاً تبعاً لذلك. ولكنّها مهما تباينت وجهات النظر فإنّها ملزمة في النتيجة بالدوران حول هذه المحاور الخمس وتقديم خصائص العلم من خلالها، وما سنفعله بعد أن قدّمناها فيما سبق خصائص للعلم أننا سنحدّد



خصائص الأيديولوجيا أيضاً من خلالها بالمقارنة مع خصائص العلم، لنقر سلفاً بأنها خصائص العلم ونقارن خصائص العلم بالأيديولوجيا من خلال هذه الخصائص، أعني بذلك على نحو مباشرٍ وصريحٍ أننا لو أردنا تحديد خصائص الأيديولوجيا في مبحثٍ مستقلٍّ لوجدنا أنفسنا أمام خصائص مبيّنة لهذه الخصائص، أو زُبماً لوجب علينا تقديمها من خلال خصائص مبيّنة، أقول مبيّنة لا مختلفة ولا مخالفة لأنّه ليس من الضروري أن تخالفها أو تختلف عنها، قد تكون في النتيجة هي ذاتها ولكنّ نسقيّة الرؤية والعرض والتحليل هي التي ستختلف... غالباً ستختلف.

### أولاً: النسقية

النسقية الأولى خصائص العلم وهي أنّه يقوم تأسيساً على منظومة أوليات تنقسم غالباً إلى قسمين أولهما البدايات التي تتوافق عليها كل العلوم والمعارف، وثانيهما المسلمات أو المصادرات التي يختص كل علم على الأقل بمنظومته الخاصّة من هذه المسلمات، وعليهما تبني القوانين الأولية التي يتم بها برهان الفرضيات والوصول إلى النتائج المتوخاة.

الأيديولوجيا في المقابل لا تقوم على منظومة أوليات وإنما تقوم على أساس أنّ البنية الفكرية التي تحملها الذات هي ذاتها مجموعة مسلمات وبدايات يسلم بها صاحبها وعلى أساسها يقيس الخارج والآخر ويفهمه ويتعامل معه. ليست المعلومات التي تحملها الذات هي الأيديولوجيا وإنما بنية العقيدة التي تنصر فيها في الذات. ومن ثمّ فإنّ البرهان والاستدلال يتم بقوانين تفرزها الأيديولوجيا على هيئة محاكمات تبدو لصاحبها منطقيةً وبدهيّةً، هي منسجمة مع البنية الأيديولوجية للذات وحدها والذات التي تتفق معها غالباً لا دائماً.

ولذلك تبدو مضحكة في كثير من الأحيان لدى الآخرين، وكثيراً ما تثير العجب والدهشة لأنها قلماً تكون متناسقةً ويزداد التناقض وينقص بقدر منطقيّة الأيديولوجيا ذاتها التي يحملها المرء.

## ثانياً: الإلزامية

ثاني ما يميّز به العلم من خصائص أنّ نتائجه ملزمة للعقول جميعاً بقوة الإلزام ذاتها. ويكون ذلك تاماً غير مشروطٍ إذا تمّ التسليم بنسق المسلمات، أي يفقد الإلزام سلطته إذا تمّ رفض نسق المسلمات. ولكن لا يجوز أن يكون الرّفْض من أجل الرّفْض والعبث، لأنّ مسلمات العلوم عامّة لها من قوّة الإلزام ما يفرض على رافضها تقديم البديل الذي يمكن التسليم به بما يمتلكه من تماسك وقوّة وكفاية، وإلا فإنّ الرّفْض مرفوض. إلّا في حضرة الأيديولوجيا فإنّ كلّ شيءٍ يكون ممكناً ومقبولاً بل ومعقولاً... ولكن عند صاحبه.

لنتذكر قصّة إبراهيم عليه السّلام إذ سأله قومه:

. لماذا حطّمت آلهتنا؟

فقال: اسألوا كبيرهم، كبيرهم هو الذي حطّمهم.

قالوا: أجنون أنت؟! إنّهُ خشب ولا يمكن أن يفعل شيئاً.

قال: فكيف تعبدوا خشباً لا يستطيع أن يفعل شيئاً؟!

فماذا قالوا؟ قال اقتلوه أو احرقوه.

أرأيت كيف أنّه ألزمهم أن يدحضوا بأنفسهم مزاعمهم ولكنّهم انقلبوا

على المنطق الذي ناقشوا به لأنّهُ قادهم إلى ما هو ضدّ أيديولوجيتهم التي لا

يريدون تغييرها.



إذا كان يمتلك العلم قدرةً إلزاميةً للعقول جميعاً على نحو ما أسلفنا فإنَّ الأيديولوجيا لا تمتلك أكثر من إقناع صاحبها ومن حمل الأيديولوجيا ذاتها بالطريقة ذاتها. فإذا تمكَّن المرء بالخطاب الأيديولوجي أن يقنع الآخر فإنَّما يكون ذلك إمَّا لمنطقيَّة الطَّرح والتَّقديم التي تكون أو تقترب من العلميَّة أو لأنَّ الطَّرف الآخر ضعيفٌ أو قابلٌ.

### ثالثاً: التراكم العموي

من نتائج الخاصتين السَّابقتين خصيصةٌ جديدةٌ، وهي أنَّ العلم يقوم على التَّراكميَّة العموديَّة أو الامتداد الخطِّي المباشر الذي يبني فيه الجديد على القديم بالضرورة، ولا يمكن للجديد أن يكون من دون أن يكون القديم قد كان.

أمَّا الأيديولوجيا فإنَّ كان من الضَّروري القول بتراكميَّة فيها فإنَّها أبعد ما تكون عن التَّراكميَّة العمويَّة المتحقِّقة في العلم، وتقترب بحالٍ من الأحوال من تراكميَّة الفنِّ أي التَّراكميَّة الأفقيَّة، التَّجاوريَّة. ومع ذلك فهي ليست تراكميَّة أفقيَّة ولا عموديَّة. إنَّها بؤريَّة استقطائيَّة. الأيديولوجيا في أصلها وطبيعتها فكرة مركزيَّة تقوم الدَّات بمحورة العالم حولها. المعلومات والمعارف في الأيديولوجيا ليست سوى أدوات لتعزيز البؤرة، الفكرة المركزيَّة التي تعتنقها الدَّات.

وأما قولنا باقترابها من التراكميَّة الأفقيَّة على غرار الفن فلا أنَّ لكلِّ ذاتها طريقتها في تبخير فكرتها المركزيَّة ولذلك تجد الاختلاف والتَّباين في المنهج والرُّؤية وطريقة التَّفكير أيديولوجيًّا بَيِّنَ أبناء الأيديولوجيا الواحدة. وبهذا المعنى فإنَّ العلماء عندما يكونون ذواتاً أيديولوجيَّة فإنَّهم بمنهجية تفكيرهم وتدابيرهم يعلمون على أساس التبشير ومركزة المادة المعرفيَّة حول بؤرته، أي أيديولوجيته.



## رابعاً: التتابعية

يلزم عن الخاصّة السّابقة خصيصةً أخرى بل خصيصتان بالتّالي، أولاهما هي الرّابعة ترتيباً أي هذه، وهي أنّ كلّ لاحقٍ في العلم مبني على ما سبقه إنجازاً وتعلماً؛ فلا يمكن أن ننجز في العلم جديداً ما لم نخضع أو نستوعب أو نفهم ما سبق من قوانين وقواعد ونظريّات. ولا يمكن تعلم النظرية الجديدة أو رُبما فهمها من دون تعلم وفهم ما سبقها من نظريّات في العلم ذاته.

لا شكّ في أنّ الأيديولوجيا تنطوي على تتابعيّة تعاقبيّة مماثلة في المبدأ للتّابعيّة في العلم ولكنّها تفتقر عنها افتراقاً نوعيّاً وحثيّ كليّاً. الحقيقة التي يجب أن تكون واضحة هي أنّ الأيديولوجيا خلاف العلم في أشياء كثيرة جدّاً ونوعيّة إلى حدّ تفاصليّ حاسمٍ ففي حين اتّسم العلم بمعنى العلوم وبمعنى كلّ علم ضمن ميادينه بالغنى الهائل فإنّ الأيديولوجيا يمكن أن تُردّد إلى محاور قليلة جدّاً تلتف حولها أو تنشق منها الأفكار المركزيّة المكونة للأيديولوجيا. الأيديولوجيات وإن تعدّدت وتنوعت مظاهرها إلى أنّها ترتد في حقيقة الأمر إلى بضع محاور قليلة، تحتاج الدّات فيها إلى تتابعيّة فكرتها المركزيّة ولكنّها ليست قائمة بالضرورة عليها وعلى ضرورة فهمها على غرار العلم.

تحتاج الدّات في حال كونها بنية أيديولوجيّة إلى فهم فكرتها المركزيّة لا أكثر ولا تحتاج إلى تتابعيتها التّاريخيّة بحالٍ من الأحوال، وتستطيع فهم ما تريد مهما كانت الفجوات التي تفصلها عن أوّل ظهورٍ للفكرة المركزيّة التي تحملها. العلاقة بين الدّات وفكرتها المركزيّة علاقة انتماء وهوى لا علاقة عالم أو ذات بمنظومة

## خامساً: الجدة والأطالة

آخر الخصائص، هنا، وهي نتيجة لازمة عن كل ما سبق، مع ما تتسم به من استقلالية في إطار كونها من خصائص العلم، وهي أن ما لا يأتي به هذا العالم أو ذاك من اكتشاف أو اختراع سيأتي بالضرورة من يقوم عوضاً عنه بهذا العمل أو الإنجاز، فلو لم يكتشف ابن زهر الدورة الدموية لاكتشفها طبيب يأتي من بعده، ولم يكتشف نيوتن قانون الجاذبية لاكتشفه عالم يأتي بعده، ولو لم يضع نيلز بور الفيزياء الكمومية لوضعها غيره... وهكذا في كل المنجزات العلمية. قد يتأخر الاكتشاف أو الاختراع وقد لا يتأخر، ولكن لا بُدَّ سيأتي لأنَّ سيرورة العلم ستقود إليه بالضرورة، وإلا توقف العلم في ميدانه عنده.

أين تقف الأيدولوجيا من هذه الخصيصة؟

الحقيقة أنَّ الأيدولوجيا لا تتسم بأيّ خصيصة مقابلة لهذه الخصيصة ذلك أنَّها وإن بالأصل كما أشرنا محض فكرة تمحور حولها معطيات العلوم ونتائج المعرفة الإنسانية. يمكن القول بمعنى من المعاني إنَّ الأفكار المركزية للأيدولوجيا وجدت منذ القدم ولم تتغير وإنَّما تغير ما بيّن دفتيها من تطورات العلوم والمعارف عبر التاريخ، أما هي بذاتها فلم تتغير، لنأخذ الإيمان بالله على سبيل المثال فكرة الإيمان بالله هي هي لم تتغير على مرَّ آلاف السنين من عمر الإنسان، وعلى مرَّ ملايين الكتب عليها. وكذلك أمر أيّ فكرة أيدولوجية أخرى... الأفكار التي تكوّن محاور الأيدولوجيات محدودة وقليلة في نظري على الرّغم من تباین الأشخاص والخصوصيات تباینًا قد يصل إلى حدّ عدد البشر منذ وجد الإنسان وإلى الآن.

## خاتمة

هذه أبرز الخصائص المقارنة بَيْنَ العلم والأيدولوجيا التي حاولنا من خلالها سبر أغوار الفروق بينهما من وجهة نظرنا. ولكنّها كما أشرنا ونكرّر ليست الوحيدة، وليست نسخة نهائية غير قابلة للتعديل أو التبديل، بما يعني أنّه لم ولن تنتهي الفروقات بَيْنَ العلم والأيدولوجيا هاهنا فبكلّ تأكيد يمكن أن نجد فروقات أخرى رُبّما بعضها يكون أكثر أهميّة مما لم ننتبه إليه بسبب اتخاذنا سبيلاً محدداً لتبيان الفرق بَيْنَ العلم والأيدولوجيا.

د. السيد أحمد  
الأيدولوجيا والعلم

## الفصل السابع

### العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم



لما كان موضوع العلوم الاجتماعية  
الإنسان في فاعلياته التي لا تحصى، ولما كانت  
معدة من قبل الإنسان بفاعلياته المعرفية، تجد  
نفسها وقد وضعت في هذا الموضع الخاص،  
موضع توقفها على الإنسان بوصفه في آن واحدٍ  
ذاتاً وموضوعاً، مما يثير سلسلة من المسائل  
الخاصة بالصعبة، ولهذا أمر مسلم به  
جان بياجه

إنَّ التَّقَاطُبَ بَيْنَ الأيديولوجيا والعلم لا يعدو كونه تقاطباً في الغايات  
والأهداف وحسب، بل تبين أنَّ ثَمَّةَ تداخلاً وتلازماً بَيْنَ العلم والأيديولوجيا  
وهذا التَّداخل والتَّلازم على درجةٍ من التَّعقيد بحيث لا يمكن الحديث عنه على  
نحوٍ واحدٍ، كما لا يمكن حصره في إطار علاقةٍ واحدةٍ أو حتَّى مستوٍ متوازٍ من  
العلاقات، وبهذا المعنى يمكننا الحديث عن علاقات قد تبدو متناقضة، فنقول إن  
العلم يحتاج للأيديولوجيا، والأيديولوجيا تحتاج للعلم، وأنَّ الأيديولوجيا تعرقل  
العلم وتحفره في آنٍ معاً.

### أولاً: تلازم العلاقة

يرى ماكس فيبر (١٨٦٤م - ١٩٢٠م) أنَّ الشَّيءَ الموضوعي العلمي هو  
ما كان خالياً من التَّقويم ومن أيِّ أثرٍ أيديولوجيٍّ، والحقُّ أنَّ هذا القول لا  
اختلاف فيه البتة، وَلَكِنَّهُ بهذا التَّشديد يكاد يقصي الموضوعية عن جل العلوم



المعروفة، ولاسيما العلوم الاجتماعية على وجه التخصيص، ولإدراكه هذه الحقيقة فقد بذل جهوداً كثيرة وكبيرة لإقامة العلم على أسس قويمية محصنة من تداخلات القيم الشخصية للباحث، ولكِنَّه على الرَّغم من ذلك فقد «بقي مضطراً إلى الاعتراف بالدور الثابت الذي لا بُدَّ أن تمارسه قيم الباحث وافتراضاته المسبقة، ليس في تحديد مبدأ انتقاء مادة دراسته وحسب، بل وفي تعيين الوجهة التي يمضي نحوها عمله»<sup>(٥٠)</sup> وليس ذلك فحسب، بل «إنَّ مانهايم يصل إلى حدِّ القول بأنَّ الأفكار في العلوم التي تدرس الإنسان تكاد تُمسي وظيفة أو دالة لمن يعتنقها، ولوضعه في وسط اجتماعي»<sup>(٥١)</sup>.

إنَّ هذا التَّلازم الوثيق بينَ البحث العلمي والخلفيَّة الأيديولوجيَّة يرجع في واقع الأمر إلى آليَّة التأثير الأيديولوجي في الباحث، بشقيها الشَّعوري واللاشعوري، هذه الآليَّة التي بيَّناها قبل قليل، والتي تقودنا بالضرورة إلى عدم خلوِّ أيِّ علمٍ من رؤية أيديولوجيَّة وتطلع إلى احتواء هذا العلم ضمن المنظومة الأيديولوجيَّة التي يعتنقها الباحث، سيَّان أكان ذلك من خلال فهم معطيات هذا العلم فهماً أيديولوجيَّاً، أم محاولة توجيه دفته بما يخدم مصالح أيديولوجيته، أو متابعة البحث العلمي انطلاقاً من الأفكار المسبقة «والبحث النَّظري الذي صاغ أهدافه بواسطة بعض التَّصورات النَّظريَّة يكتسبها بذلك بعداً أيديولوجيَّاً هذا على رغم تحديده لواجبه على أنَّه التَّحرر من كلِّ (ثقل أيديولوجي)»<sup>(٥٢)</sup>.

---

٥٠. صلاح قصوه: الموضوعية في العلوم الإنسانية. دار التنوير. بيروت ط ٢. ١٩٨٤ م. ص ١٨٦.

٥١. م. س. ص ٦.

٥٢. م. أندريفا: الدور المنهجي للنظرية في مختلف مراحل البحث الاجتماعي. مجلة الفكر العربي. العدد

١١٥. ١٩٧٨ م. / ٦.



ولهذا ليس في العلوم الإنسانيّة وحدها، بل حتّى في العلوم الطبيعيّة «فالعالم الطبيعي يعمل باليد ما تبقى من تصورات، في معظمها نتاج لفكر سالفه... فلكل تجربة مهما كانت بسيطة، تفسير يمكن على الأقل وضعه في إطار أي تصوير نظري سالف»<sup>(٥٣)</sup>.

ومن خلال ذلك يتبيّن لنا أنّ العلاقة بين العلم والأيدولوجيا متلازمة بوثاقة غير منفكّة، على رغم قيام تعارض حادّ بين مرامي وأغراض كلّ منهما، حتّى لنستطيع القول إنّ العلم والأيدولوجيا كليهما يكاد يكون صورة للآخر، وإن ندّ العلم الطّبيعي بعض الشّيء عن هذا الحكم إلا أنّه لن يستطيع البتة الخروج عنه على نحوٍ كامل تامّ، وسيظلّ حتماً أحد ميادين الممارسة الأيدولوجيّة شاء أم أبى، ولهذا ما سنعرض له ونبينه بعد قليل.

## ثانياً: منطلق العلاقة

ولكن ما الأساس الذي يتركز عليه هذا التّلازم الوثيق بين العلم والأيدولوجيا؟

لا شكّ في أنّ هذا الأساس يرتد بصورة مباشرة إلى العلاقة الماثلة بين الدّات والموضوع، في العمليّة المعرفيّة، حيث الدّات هي العارف، والموضوع هو المعروف، وبمنظرة استشرافيّة أوليّة يتجلى لنا بوضوح أنّه كلما كان الموضوع مستقلاً عن الدّات أكثر دنا من الموضوعيّة والعلميّة أكثر، أو لنقل بصورة أخرى: كلما كان موضوع المعرفة مستقلاً عن الدّات العارفة، كان بمأمن أكثر من تأثيرات الدّات وتداخلاتها بمختلف صورها وأشكالها.



آ . وهنا نجدنا أمام ضربين من المعرفة العلميّة، هما اللذان دَرَجَ الباحثون على تسميتهما بالعلوم الطبيعيّة والعلوم الاجتماعيّة أو الإنسانيّة، وقد أُكِّدت العلوم الطبيعيّة عبْرَ مسيرتها الطويلة استقلاليتها شبه الكليّة عن الدّات العارفة بحيث لا نكاد نجد أيّ أثرٍ واضحٍ لتدخُّل الباحث أو الدّات العارفة في سير المعرفة العلميّة، أو حتّى فهمها بعيداً عن دلالاتها المتضمنة فيها، إن الدّات هنا «تقيس وتحسب وتستنّج على نحوٍ يمكن لكلِّ إنسانٍ التّحقّق منه، والتي تكون بالتّالي فاعليتها الايستيميّة مشتركة بين الدّوات كلّها، حتّى إن استبدلنا بهذه الدّوات آلات (إلكترونيّة) أو (سيبرنطقيّة) زودت مسبقاً بمنطق وعلم رياضيات مشاكلين للمنطق وعلم الرياضيات اللذين تعتمدهما الأدمغة البشريّة... وتاريخ الفيزياء كله هو تاريخ انفتاح أنقصَ إلى أقلِّ حدّ التّشويّهات الراجعة إلى الدّات المتمركزة في ذاتها كي يخضع إلى أقصى حدّ لقوانين الدّات الإيستيميّة، ومعنى هذا أنّ الموضوعيّة قد غدت ممكنة، وأنّ الموضوع قد جُعِلَ مستقلاً استقلالاً نسبياً عن الدّوات»<sup>(٥٤)</sup>.

ولقد بات من الواضح جدّاً أنّ أهمّ المقاييس التي يعول عليها للوقوف على مدى استقلال الموضوع عن الدّات العارفة، وبالتالي مدى موضوعيّة وعلميّة المعرفة. هو قدرة المبحث العلمي على تقمُّص الطّريقة الرياضيّة والتّعامل بلغة الكم أو الأرقام، ولذلك سعى الكثير من الباحثين بجهودٍ حثيثةٍ إلى صياغة علومهم صياغةً كميّةً وإدماجها في صلب الطّريقة الرياضيّة، إلا أنّ هذه

---

٥٤ . جان بياجه: وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم . ترجمة الدكتور أسعد عربي درقاوي . ضمن كتاب الاتجاهات الرئيسيّة للمبحث في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة . وزارة التعليم العالي . دمشق . ١٩٧٦ م .



الجهود لم تثمر إلا في ميادين العلوم الطبيعيّة التي هي بالأصل مشتقة من الذات العارفة.

وعلى رغم هذه الاستقلاليّة للعلوم الطبيعيّة من الذات العارفة، وعلى رغم خضوع ظواهرها للتجريب وإعادة التجريب مرّات متكرّرة ضمن ظروف وشروط تكاد تكون متماثلة، بعيدة كلّ البعد عن الأهواء الأيديولوجيّة، فإن معظمها لا يزال عرضةً لميول الباحث واعتقاداته إلى حدّ ما، ولعلّ أكثرها طواعيّةً للهوى الأيديولوجي علم الحياة بمختلف فروعه، ثمّ علم الفلك والكيمياء، وحتىّ الفيزياء، ولاسيّما مع تعاظم إنجازاتها وتشعب اختصاصاتها، ولذلك فإنّنا لا نعدم حتّى الآن من تفسيراتٍ كثيرةٍ لكثير من ظواهر ضروب العلم الطبيعي، مرتبطة بحوامل أيديولوجيّة معيّنة.

ولو عدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا الأمر متجليّاً على نحوٍ واضح، فلقد كتب لينين قائلاً: لقد «فرضت الفيزياء الجديدة في المثاليّة لأنّ الفيزيائيين بشكلٍ رئيسيّ، وبالتّحديد، لم يكونوا ليعرفوا بالجدل (Dialectic)»<sup>(٥٥)</sup> ليؤكّد لنا من خلال ذلك أنّه لم يجد ما يصبو إليه لتدعيم أيديولوجيته في الفيزياء الحديثة.

ولقد كتب إنجلز فيما قبل محاولاً إظهار منهجه وأيديولوجيته على أنّها الأصلح والأقدر على رؤية الواقع رؤية علميّة موضوعيّة: «الجدل (Dialectic) تحديداً هو الذي يمثل الشكل الأكثر أهميّة بالنسبة إلى المعارف الطبيعيّة المعاصرة، فهو . أي الجدل . فقط النظير (Analogi) ولهذا فهو الطريقة لتفسير عمليات

التطور الجارية في الطبيعة وعلاقتها العامة، ولتفسير الانتقالات من مجال بحث إلى مجال بحثٍ آخر»<sup>(٥٦)</sup> وانطلاقاً من هذه الرؤية ذاتها قرأ إنجلز ظواهر علم الحياة وفسرها بمنطقه الجدلي بما يتفق وأيديولوجيته المادية التاريخية . الطبيعيّة، وقد توصل بهذا الصّد إلى «الاستنتاج بأنّ الحياة لا بدّ أن تتعلق بوثوق بالبروتينات الموجودة على هيئة (الجلبة . (protoplasm)، ولذا فقد عرض إنجلز علم الأحياء على أنّه كيمياء البروتينات، معبراً بميله لهذا عن فكرة انتقال أحد هذين العلمين إلى الآخر، وبالتالي انتقال أحد أشكال حركة المادة إلى شكلٍ آخر»<sup>(٥٧)</sup>.

ويبدو البعد الأيديولوجي واضحاً جليّاً في هذه القراءة لعلم الأحياء، ولأنّ هذا العلم هو الأكثر طواعيّةً للميل والهوى الأيديولوجي فقد كان تربة خصبة لممارسات الأيديولوجيا المختلفة، وانطلاقاً من ذلك جاء إ. ي. إيلين أحد الماركسيين المعاصرين ليقدم لنا قراءة ماركسيّة لعلم الأحياء، فيقول في كتابه (البحث العلمي والصّراع الفلسفي في البيولوجيا . علم الأحياء): وفي واقع الأمر فإنّ تاريخ علم الأحياء في العقود الأخيرة كان شاهداً على محاولاتٍ عديدةٍ لبعث المدارس المثاليّة وأشباه المدارس في إطار علم الأحياء نفسه تحت لافتات جديدة، غير أن الماديّة التاريخيّة . الطبيعيّة . تقف حجر عثرة في وجه محاولات إنشاء مدرسة (علم أحياء) مثاليّة ذات تأثير ولو ضئيل، مستخدمةً في ذلك عريضة بعض علماء الحياء المثاليين»<sup>(٥٨)</sup>.



ب . قلنا إنَّ التَّجريبَ واحدٌ من العوامل الأساسية التي توفر مناخاً ملائماً للموضوعية في العلوم الطبيعية، من حيث إمكانية إعادة التجربة ضمن ظروف تكاد تكون متماثلة تفرض ذاتها على الذات العارفة أيّما كان انتماءها الأيديولوجي، والحق أنَّ التجربة وإعادتها مرّةً فآخري يقتضي عزل الواقعة المبحوثة عن جملةٍ من الشُّروط المرافقة التي نَعدها في البحث ثانويّةً، هذا إلى جانب إمكانية التَّحكم بشروط التجربة، ولكن ينبغي ألا ننسى هنا «أنَّ عزلنا لهذا الجانب - الواقعة - هو عزلٌ مشروطٌ إذ إنَّه ليس كذلك في الواقع»<sup>(٥٩)</sup>.

ولعلَّ في هذا ما يمكن أن نَعده ثغرةً تنفذ منها الأيديولوجيا . ضمن حدود معينة . ذلك أن إعادة أحداث الواقعة مخبرياً بشروط مماثلة تماماً للشروط الواقعية التي حدثت وتحدث فيها، أمرٌ مستحيل تماماً، على الأقل في أفق الإمكانيات العلميّة القائمة والمتاحة حالياً.

وإذا كانت «إعادة إنتاج أيّ جانبٍ من الحقيقة المزمع بحثها بشكل معزول أمراً مقبولاً في العلوم الطبيعيّة - فإن - خاصيّة البحث الاجتماعي تكمن في استحالة عزل أيّة حقيقة، أو أي جانب من جوانبها من دون المخاطرة باقتلاع هذه الحقيقة من الظاهرة الاجتماعيّة عن مجمل الظواهر الأخرى»<sup>(٦٠)</sup>، «ذلك أنَّ العلوم الإنسانيّة - الاجتماعيّة - لما كان موضوعها الإنسان في فاعليّاته التي لا تخصّ، ولما كانت معدة من قبل الإنسان بفاعليّاته المعرفيّة، تجدد نفسها وقد وضعت في هذا الموضع الخاص، موضع توقّفها على الإنسان بوصفه في آن واحد

ذاتاً وموضوعاً، مما يشير سلسلة من المسائل الخاصة الصَّعبة، ولهذا أمرُ مسلّم به»<sup>(٦١)</sup>.

ولعلَّ أبرز هذه الصُّعوبات وأكثرها أهميَّة هي التي تتجلى في عدم مقارنة اليقين والموضوعيَّة، والانفتاح الكبير أمام الممارسة الأيديولوجيَّة، ذلك أنَّ الاندماج بَيْنَ الذات العارفة وموضوع المعرفة، بَيْنَ العارف والمعروف، يعني طواعية موضوع المعرفة ومرونته الكبيرة أمام تأثيرات الذات العارفة، وقابليته للانقياد السهل أمام هذه الذات التي ستفرض عليه توجهاتها وميولها الأيديولوجيَّة بصورةٍ أو بأخرى.

إنَّ معاناة العلوم الإنسانيَّة على هذا الصعيد معاناةً مزدوجةً، فهي بقدر ما تعاني من انفتاحٍ وتخلخلٍ أمام الأهواء الأيديولوجيَّة، تعاني أيضاً من انغلاق - بقدر - أمام الموضوعيَّة، أو لنقل إن المعاناة الثانية تتمثَّل بصعوبة الانفتاح أمام الموضوعيَّة «وذلك لسببين كلاهما منهجيٌّ إلى حدٍّ ما، الأول هو أن الحدَّ الفاصل بَيْنَ الذات المتمركزة في ذاتها والذات الایسيميَّة يقلُّ وضوحه بمقدار ما ينخرط أنا الملاحظ في الظواهر التي يجب أن يكون قادراً على دراستها في الخارج، والثاني هو أن الملاحظ يحمل بمقدار ما يكون «معنياً» وبمقدار ما ينسب قيماً إلى الوقائع التي تهمه، على الاعتقاد بأنه يعرفها معرفة حدسيَّة ويقل بقدر ذلك إحساسه بضرورة التقنيات الموضوعيَّة»<sup>(٦٢)</sup>.

لهذا الجانب الأول من الصُّعوبات التي تعرقل انفتاح العلوم الإنسانيَّة على الموضوعيَّة وتيسر لهذا الانفتاح أمام التأثيرات الأيديولوجيَّة، وقد سميناه الجانب

٦١. جان بياحه: وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم. ص ٨٩.

٦٢. م. س. ص ٩١.

المنهجي، ولكن ثمة جانب آخر من الصُّعوبات هو ما يمكن أن تسميه الجانب التَّجريبِي، وقد أشرنا قبل قليل إلى أن التجريب في العلوم الطبيعيَّة أمر يسير وسهل، وإن وجد أمامه من صعوبات فهي صعوبات تقنيَّة لا أكثر، أما وضع «علوم الإنسان فهو أكثر تعقيداً بكثير، لأنَّ الشَّخص الذي يلاحظ ذاته أو يجري تجارب عليها، أو على الآخرين يمكن، من جهة، أن تغيِّره الظواهر الملاحظة، أو أن يكون من جهة أخرى، منبعاً لتغيرات تطرأ على هذه الظواهر من حيث انبساطها وطبيعتها بالذَّات، وتبعاً لمثل هذه الأوضاع، إنما يخلق كون المرء في آن واحد ذاتاً وموضوعاً»<sup>(٦٣)</sup>.

والحق أن «صعوبات التَّجريب هذه ليست خاصَّةً . فقط . بعلوم الإنسان . ولا تنجم كلها عن كون موضوع الدراسات هو أن جماعة الملاحظ جزء مكمل لها، أو يمكن أن يكون كذلك، الصعوبة أولاً هي من طراز آخر أعم وسببها استحالة التأثير من موضوعات الملاحظة كما تريد عندما تكون هذه الموضوعات قائمة في سلا لم أعلى من الفعل الفردي»<sup>(٦٤)</sup>.

## خاتمة

ما تحدثنا في هو العلاقة بيِّن العلم والأيدولوجيا بعدما تحدثنا في آليَّة التأثير ونوعيتها الشعوري واللاشعوري. إننا نزيد في تحديد أبعاد العلاقة بيِّن العلم والأيدولوجيا من مختلف الجوانب والزوايا كيما تكون الرؤية في الختام متكاملة أكثر ما يمكن من التكامل وأشدّه. وعلى هذا الأساس ستكون متابعتنا الكلام في العلاقة بيِّن العلم والأيدولوجيا إذ سننتقل الآن إلى طبيعة التأثير المتبادل

---

٦٣. م. س. ص ٩٠. ٩١.

٦٤. م. س. ص ١٠٤.

بينهما. تكلمنا فيما سبق على آليّة التأثير، وفيما سيأتي سيكون الكلام على طبيعة هذا التأثير من خلال حاجة الأيديولوجيا للعلم وحاجة العلم للأيديولوجيا وطبيعة الأثر الذي تمارسه الأيديولوجيا في العلم.

يرى كثيرون أن الأيديولوجيا هي التي تؤثر في العلم والعلم لا يؤثر في الأيديولوجيا. فما مدى صحّة ذلك؟

وفي الوقت ذاته يرى كثيرون أيضاً أنّ الأيديولوجيا هي فقط التي تحتاج إلى العلم فيما العلم لا يحتاج إلى الأيديولوجيا. فما مدى صحّة ذلك؟

د. السيد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم

# الفصل الثَّامِن الأيدولوجيات تعرقل العلم





إنَّ النَّظْرَ إِلَى رَغْبَاتِنَا عَلَى أَنَّهَا حَقَائِقٌ هُوَ  
كُنْهُ الْمَسْعَى الْإِيدِيُولُوجِي، فَالْإِيدِيُولُوجِيَا أَيْبَا  
كَانَتْ تَضَعُنَا فِي عَالَمٍ أَمِينٍ أَخْلَاقِيًّا مَرِيحٍ عَقْلِيًّا  
حَيْثُ تَصْرِفَاتُنَا مَبْرُورَةٌ وَرَغْبَاتُنَا مَسْوُغَةٌ.

جان . وليام . لابيير

انتبهنا قبل قليل إلى أَنَّ الْكَثِيرِينَ يَرُونَ أَنَّ الْإِيدِيُولُوجِيَا هِيَ فَقْطُ الَّتِي نَحْتَاجُ  
إِلَى الْعِلْمِ فِيمَا الْعِلْمُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِيدِيُولُوجِيَا. وَأَنَّ الْكَثِيرُونَ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ يَرُونَ  
أَنَّ الْإِيدِيُولُوجِيَا هِيَ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْعِلْمِ وَالْعِلْمُ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْإِيدِيُولُوجِيَا.  
بَعْدَ مَا تَحَدَّثْنَا فِي مَنْ عِلَاقَةِ بَيِّنَ الْعِلْمِ وَالْإِيدِيُولُوجِيَا وَالْفَرْقَ بَيْنَهُمَا بَعْدَمَا  
تَحَدَّثْنَا فِي آلِيَّةِ التَّأْثِيرِ وَنَوْعِيهَا الشَّعُورِي وَاللَّاشَعُورِي. نَسْأَلُ مَا صَحَّةُ هَذِهِ  
الْإِعْتِقَادَاتِ أَوْ الْقَنَاعَاتِ؟

فِي إِطَارِ إِجَابَتِنَا عَلَى هَذَا السَّأْلِ سَنَنْتَقِلُ إِلَى طَبِيعَةِ التَّأْثِيرِ الْمُتَبَادِلِ بَيِّنَ  
الْعِلْمِ وَالْإِيدِيُولُوجِيَا، فَمَا تَكَلَّمْنَا فِيهِ فِيمَا سَبَقَ هُوَ آلِيَّةُ التَّأْثِيرِ، وَفِيمَا سِيَأْتِي  
سَيَكُونُ الْكَلَامُ عَلَى طَبِيعَةِ هَذَا التَّأْثِيرِ مِنْ خِلَالِ حَاجَةِ الْإِيدِيُولُوجِيَا لِلْعِلْمِ  
وَحَاجَةِ الْعِلْمِ لِلْإِيدِيُولُوجِيَا وَطَبِيعَةِ الْأَثَرِ الَّذِي تَمَارَسُهُ الْإِيدِيُولُوجِيَا فِي الْعِلْمِ.

## أَوَّلًا: الْإِيدِيُولُوجِيَا نَعْرِقُ الْعِلْمَ

عَلَى أَسَاسِ مَا بَيَّنَّاهُ فِيمَا قَبْلَ حَقِّ لَنَا أَنَّ نَسْأَلُ الْآنَ، انْطِلَاقًا مِنْ هَيْمَنَةِ  
الْإِيدِيُولُوجِيَا عَلَى تَصَوُّرَاتِ الْبَاحِثِ وَتَحْلِيلَاتِهِ وَمَنْهَجِيَّتِهِ «هَلْ يُمْكِنُ حَقًّا تَصَوُّرُ

أن للبحث، حتّى الخالص أو الأساسي حيز مميز في (منأى) من كل تأثير أيديولوجي، بَيْنَمَا هو واقع بَيْنَ حَيِّزَيْنِ آخَرَيْنِ - التأهيل الذي يتلقاه العالم وظروف العمل الميسرة له من جهة، والتأويل المعرفي أو الفلسفي والاستخدام التقني Technology لأعماله التي تخضع بالتأكيد للتأثيرات الأيديولوجية»<sup>(٦٥)</sup>.

على رغم أنّه «يبدو متعذراً تصور إصابة الفكر العلمي بعدوى من أيديولوجيات سياسية أو دينية أو اجتماعية أو اقتصادية - إلا أننا لا نستطيع أن ننكر البتة أن هذه الأيديولوجيات - تؤثر في التعليم الذي يتلقاه عالم المستقبل - كما تؤثر أيضاً - في ظروف ممارسة التطبيقات العلمية، لكننا نحزم أنّ ما من محكمة تفتيش قدرت أن تمنع جاليلية . ١٥٦٤ م . ١٦٤٢ م) من السير في اكتشاف قوانين الحركة (Mechanics) السماوية»<sup>(٦٦)</sup>. ولا أن تمنع أية سلطة أيديولوجية أخرى غيره من الباحثين والعلماء من تسجيل الاكتشافات والاختراعات المختلفة على اختلاف صعد العلم وتبناها.

هذه حقيقة لا يمكن التكرار لها البتة، وعلى رغم جلاء هذه الحقيقة وسطوتها فإننا لا نستطيع أن ننكر أيضاً أن ثمة ممارسات أيديولوجية تحريضية تحاول أن تطال العلم، إذ «إنّ النّظر إلى رغباتنا على أنّها حقائق هو كنه المسعى الأيديولوجي، فالأيديولوجيا أيّا كانت تضعنا في عالم أمين أخلاقياً مريح عقلياً حيث تصرفاتنا مبررة ورغباتنا مسوغة»<sup>(٦٧)</sup>.

<sup>٦٥</sup> . جيرار بوي: العلم والأيديولوجيا . ص ٤٩ .

<sup>٦٦</sup> . م . س . ص ٤٨ .

<sup>٦٧</sup> . جان . وليام . لايبير: ما معنى الأيديولوجيا . ضمن كتاب الأيديولوجيات في العالم الحاضر . ص ١٧ .



ولذلك تسعى الأيديولوجيا إلى صوغ النتائج العلميّة - بصورة أو بأخرى - بما يتفق معها ويعززها، ولأنّ طبيعة البحث العلمي تشرب دوماً إلى إقصاء تأثيرات الذات العارفة كان «هناك إذن تأثير غير مباشر للأيديولوجيا في البحث العلمي بوساطة الغايات (التقانية) المفروضة على العالم، والوسائل الموضوعية في تصرفه»<sup>(٦٨)</sup>.

وإلى جانب هذه التأثيرات التّحريفية التي نستطيع أن نسمها بأنّها لاشعوريّة، هناك تأثيرات تحريفية شعوريّة، قصديّة كما أبنا من قبل، هي أخطر ما في الموضوع، إذ يلجأ الباحث إلى تزوير الحقائق العلميّة بصور متعدّدة ومباشرة. وينقلها بعد هذا التّزييف على أنّها حقائق علميّة قاد إليها البحث والتّجريب، وكثيراً ما يحدث مثل هذا، ومن أمثلة ذلك ما فعله العالم الألماني إرنست هيكل . ١٩١٩ م . E. Haeckel الذي «زوّر مرّة صورة الجنين حيوان حتّى تبدو قريبة الشبه بجنين الإنسان، فيثبت بهذا نظريته في التّطور»<sup>(٦٩)</sup>. ومن الأمثلة السّاطعة على ذلك أيضاً «تنشيط أجهزة المخبرات الأميركيّة لدراسات علم الأناسة - Anthropology حول الشعوب المتخلّفة»<sup>(٧٠)</sup>. متطلعة من وراء ذلك إلى أغراض متعدّدة لعلّ أهمّها تعزيز هيمنتها على هذه الشعوب بتكريس تخلف هذه الشعوب عبر آليّة داخلية نابعة من اعتقاد هذه الشعوب بأنّها متخلّفة بالطبيعة والخلقة ولن ينفعها سعي ولا جهد للخروج من هذه البوتقة.

<sup>٦٨</sup> . جيرار بوي: العلم والأيديولوجيا . ص ٤٨ .

<sup>٦٩</sup> . د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة . دار النهضة العربية القاهرة . ط ٦ . ١٩٧٦ م . ص ٢٠٧ .

<sup>٧٠</sup> . د. نايف بلوز: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية . مطبعة الداودي . دمشق ١٩٨٤ م . ص ٢٤١ .

وبالاستناد إلى ذلك لا يمكننا إلا أن نوافق **باريون** على أنه قد «كشف المشروع الأيديولوجي عن قصره في استيعاب الواقع وفهمه، والإسهام في بناء صرحه وتكوينه»<sup>(٧١)</sup>.

عرقلة الأيديولوجيا للعلم لا تتوقف عند تشويه الحقائق وتزويرها وحرفها عن مسارها وتصويرها على عكس أو ضد ما هي عليه أو على الأقل تصويرها بخلاف ما هي عليه وإنما يتعدى ذلك في كثير من الأحيان إلى تعطيل عن التفكير السليم وشل قدراته في الوصول إلى الحقائق.

إنَّ الإنسان، والباحث إنسان بطبيعة الحال، عندما يضع في تصوره نتيجة قبليةً ويسعى لإثباتها بلي عنق العلم سيهدر وقته في إثبات ما لا يمكن إثباته وبرهنة ما لا يمكن البرهان عليه. عندما أقرر قبلياً أنَّ للمثلث أربعة أضلاع وأريد أن أبرهن ذلك سأقضي العمر وأنا أحاول ذلك ولن أفلح. إنَّ من يحمل فكرة أيديولوجية قبلية لن يختلف عن هذه الحال بحال من الأحوال من ناحية المنهج والنتيجة. وبذلك تمارس الأيديولوجيا تأثيرها السلبي في العلم وتعرقله. الأمثل على ذلك كثيرة ويمكن أن تضع ما شئت منها شاهداً ومثالاً.

## ثانياً: حاجة العلم للأيديولوجيا

قد يبدو من قبيل المفارقة أن نقول إنَّ العلم بحاجة إلى الأيديولوجيا وقد سبق وأشرنا قبل قليل إلى أن الأيديولوجيا تلعب دوراً بارزاً في كثير من الأحيان في عرقلة مسيرة العلم وحرفه عن مساره الحقيقي، والحق أن تعقد العلاقة

<sup>٧١</sup>. ياكوب باريون: ما هي الأيديولوجيا؟ ص ٣٠ - ٣١.

وتشابهها بَيِّنُ الأيديولوجيا والعلم يجعل الحديث عن هذين الدورين المتناقضين حديثاً مسوغاً ومشروعاً، لأنَّ هذا ما يشهد به الواقع ويؤكِّده، ذلك أنَّ «الأيديولوجيا لا تؤدي بالضرورة إلى انطماس الصُّورة الواقعيَّة لموضوع التَّفكير وأنَّ العلاقة بَيِّنُ الأيديولوجيا والمصلحة لا تحول بالضرورة دون اكتشاف ماهيَّة الظواهر المدروسة»<sup>(٧٢)</sup>.

وكلما كان الباحث متجرباً أكثر، ميالاً إلى الموضوعيَّة، نزاعاً إلى عدم التدخل في سيرورة البحث العلمي: وكلما كان موضوع البحث مستقلاً أكثر عن الدَّات العارفة، كان الوصول إلى الدقة ممكناً أكثر، وبغضِّ النَّظر عن ذلك كلِّه فإنَّ «العلم ينمو بوصفه عمليَّة معرفيَّة اجتماعيَّة في شروط تاريخيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة وفكريَّة معيَّنة. ويمكن القول إنَّ لهذه الشُّروط حدوداً وآفاقاً وإمكانيات يتعذر تخطُّبها»<sup>(٧٣)</sup> وكأنَّ نمو العلم بذلك مرتبطٌ بالغايات الأيديولوجيَّة، والشُّروط والظُّروف المشخَّصة المحيطة بهذه الأيديولوجيا. وليغدو التَّطور العلمي جزءاً من آليَّة كل أيديولوجيا شاءت أم أبت، وهذا حقٌّ لأنَّ «المعرفة في المجال الاجتماعي لم تجري إلا من موقع أو تطلع اجتماعي معين، والتَّقدُّم العلمي لم ينتجه أناس حياديون أو مترفعون عن صراعات عصرهم وهموم البشريَّة ومصالحها، بل بالدرجة الأولى أولئك الذين يحملون في صدورهم مطامح وعواطف كبرى وفي رؤوسهم مثلاً عليا محرَّكة، ويمثلون مطامح فئات اجتماعيَّة ويعملون للدِّفاع عنها»<sup>(٧٤)</sup>.

٧٢. د. نايف بلوز: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية. ص ٢٣٩.

٧٣. م. س. ص ٢٣٧.

٧٤. م. س. ص ٢٤١.

وبالاستناد إلى هذه الفكرة ذاتها وإلى أن عملية المعرفة بحد ذاتها تمثل صراعاً بين الذات الباحثة والواقع أو موضوع المعرفة، يمكننا القول «إن عملية المعرفة وسر ولادة الأفكار تعينان صراعاً فاجعياً (Dramatic) ليس بين الواقع وبين محاولتنا إدراكه فحسب، بل بين هذه المحاولات نفسها وبين الأفكار، التي هي بمكانة نتائج للمحاولات، كما وينهض صراع المعرفة البشرية العظيمة باعتباره بحثاً عن الحقيقة واستكمالاً لحوار علمي يبلغ من العمر (آلاف) السنين، وصراعاً متقدماً بين الأفكار، توجهه وتحرض عليه عوامل ليست دائماً جوهرية في العلم»<sup>(٧٥)</sup>.

«وهكذا يغدو التعدد الأيديولوجي نفسه شرطاً ملائماً لتقدم البحث العلمي وإجراء انفتاحات تحد من دور العوامل الحقيقية لعملية البحث العلمي، فالمشكلة ليست في تحرير العلم من التقويم الأيديولوجي الذي يتضمن ولا شك ما لا يدخل في أية معرفة علمية، بل في إدراك أن الموضوعية العلمية لا تقتضي قطع الصلة بكل تقويم أيديولوجي، وأن التقدم العلمي مرتكز بجوافر أيديولوجية مناسبة، وإن كانت خارجية بالنسبة للحركة المنطقية لعملية البحث العلمي»<sup>(٧٦)</sup> ولذلك فإننا نستطيع القول بحق: لا علم من دون أيديولوجيا، ولا أيديولوجيا من دون علم، فالأيديولوجيا تلد العلم والعلم يلد الأيديولوجيا في الوقت ذاته، أو لنقل إن كليهما يخرج الآخر من ذاته ليحتضنه ويحيطه ببالغ رعايته وعنايته.

إن حاجة العلم للأيديولوجيا تشبه حاجة النار إلى النّفخ فيها. إن تأجج الحماسة الأيديولوجية في نفس الباحث تدفعه للعمل بفاعلية أكبر

<sup>٧٥</sup>. أ. ي. إيلين: البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا. ص ١٠.

<sup>٧٦</sup>. نايف بلوز: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية. ص ٢٤٣.

وإشارة أكبر للكشف عما يؤكّد حقائقه أو قناعاته الأيديولوجيّة بنتائج علميّة جديدة، الأمر الذي يؤدّي غالباً إلى مزيد من الكشوفات العلميّة التي تنفجر هي ذاتها وتشظى إلى إنجازات تقنيّة وعمليّة متنوعة لم تكن موجودة في الحسبان. وبهذا الطريق أصلاً كانت كثير من الاكتشافات العلميّة والتقنيّة والاختراعات.

على أنّ ذلك لا ينفي ولا يغير من حقيقة أنّ الأيديولوجيا تمارس تأثيراً سلبياً خطيراً في العلم وتقف حجر عثرة أمامه إذا كانت الأفكار التي يحملها الباحث خاطئة. وفي الوقت ذاته يجب أن لا نضع في أذهاننا أنّ وصول الباحث إلى نتائج صحيحة لا يعني بالضرورة أنّ أيديولوجيته صحيحة أو الأفكار أو القناعات التي يحملها صحيحة. ولهذا سرٌّ من أسرار الفاعليّة الأيديولوجيا التي يستعصي على الحل، فكثير من أصحاب العقائد أو القناعات الخاطئة وصلوا إلى نتائج أو كشوفات علميّة متميزة في سياق بحثهم عن براهين أو تأكيدات لقناعاتهم الخاطئة.

## خاتمة

هنا وقفنا عند أمر متناقضين شكلاً ومضموناً. ففي حين أنّ الأيديولوجيا تمارس تأثيراً سلبياً خطيراً في العلم وتعرقل نموه وتقدمه وتطوره فإنّ العلم في الوقت ذاته يحتاج إلى الأيديولوجيا.

صحيح أنّ هذا تناقض منطقي إلا أنّه من الناحية العمليّة حقيقة غير قابلة للشكّ. لتذكر جيّداً كيف أن النّار لا تشتعل في الماء ولكنّها تتأجج بالماء. هل المثال واضح بما يكفي؟



إذا أردت أن تشعل نار بقمّاش أو حطب في الماء فلن تفلح ولن تستطيع ذلك. وأيضاً إذا كان الماء أكبر من النّار أو أقوى فإنّ النّار تنطفئ ولا تستمر في الاشتعال. هذه هي حال عرقلة الأيديولوجيا للعلم.

ولكن إذا كانت النار مشتعلة بقوة وألقيت عليها قليلاً من الماء فإنها تتأجج وتزداد اتقاداً. هذه هي حالة حاجة العلم للأيديولوجيا.

ولكن هل تحتاج الأيديولوجيا للعلم؟

لننظر في ذلك في الفقرة التالية.

د. السيد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم

## الفصل التاسع

### حاجة الأيديولوجيا للعلم



حاجة الأيديولوجيا إلى تعزيز وحدتها  
باستمرار ودعم قوّتها في الإخضاع تلزمها  
بصراع دائم ضدّ (الهرطقة) هؤلاء الأعداء  
الدّاخلين، فالهرطقة تؤدّي وظيفتين: أنّها، من  
جهةٍ، تتيح للأيديولوجيا أن تدخل التّغير بأن  
تنفيه بما هو كذلك وتخفيه على وجه الدّقة في  
تأكيد مساسيّة القول المقدس الذي ينبغي  
السهر على طهارته من أولئك الذين زلوا؛ وهي  
من جهةٍ ثانيةٍ، تتيح لجهاز أيديولوجيّ تهدّد  
الشّيخوخة ملاكّه أن يتجدّد.

أندريه أكون

كما أنّ للأيديولوجيا آليّة تأثيريّة مزدوجة، شعوريّة ولا شعوريّة، كذلك فإن  
استفادة الأيديولوجيا من العلم ذات آليّة مزدوجةٍ، مباشرة وغير مباشرة، فهي إما  
أن توجه دفّة البحث العلمي ليصل إلى نتائج تعززها وتؤكدّها، وهذه الاستفادة  
المباشرة، وهي نابعة من صميم خصائص الأيديولوجيا، وقد ميّز كارل  
لوفنشتاين الأيديولوجيا انطلاقاً من هذا المعنى بعنصرين أساسيين «حيثُ يرى  
أنّها تشتمل عنصراً نظريّاً وعنصراً عمليّاً، لكي يصل من هذا إلى نشوء  
الأيديولوجيا يقتضي تحويل العنصر النظري الذي تستمدّه أساساً من النظريات

الفلسفية إلى نظرة شاملة للعالم، وذلك حين يقوم بتحويل هذه النظريات إلى عقائد جامدة، وتجربها على نحو قاطع دافع، كما أنها تشبث بها وتعتنقها كالعقائد الإيمانية»<sup>(٧٧)</sup>.

أمّا الاستفادة غير المباشرة فتتمثل في تسقط الأيديولوجيا للنتائج العلمية التي تدعمها وتعزز مواقفها، من دون أن يقصد أصحابها بالأصل أي موقف أيديولوجي **فبافلوف** . E. P. Pavlov مثلاً الذي «اكتسبت دراساته أهمية كبيرة جداً في أوساط الجدل (Dialacric) الشوفيتي كان كثيراً ما يكرّر أنه يجهل كلّ شيء عن هذه الفلسفة، ولم يكن لهذا الأمر أية أهمية إذ إنّ آثاره تحتل منهجية متحققة بالفعل أخذ آخرون على عاتقهم استخلاصها استخلاصاً تأملياً»<sup>(٧٨)</sup>.

والحقيقة أن حاجة الأيديولوجيا للعلم مرتبطة بالية معينة ومحددة يفرضها موقع الأيديولوجيا ومكانتها إزاء ذاتها أولاً، وفي مواجهة الأيديولوجيات الأخرى المنافسة والمناهضة، ويمكننا أن نحمل مركبات هذه الآلية بالعناصر التالية:

### **أولاً: تعزيز الوحدة**

إنّ كل أيديولوجيا بحاجة ماسة ودائمة إلى تعزيز وحدتها وتماسكها الداخلي كيما تستطيع الصمود والبقاء و«حاجة الأيديولوجيا إلى تعزيز وحدتها باستمرار ودعم قوتها في الإخضاع تلزمها بصراع دائم ضدّ (المرطقة) هؤلاء الأعداء الداخليين، فالمرطقة تؤدي وظيفتين: أنّها، من جهة، تتيح للأيديولوجيا أن تدخل التغير بأن تنفيه بما هو كذلك وتخفيه على وجه الدقة في تأكيد مساسية القول المقدس الذي ينبغي السهر على طهارته من أولئك الذين زلوا؛



وهي من جهة ثانية، تتيح لجهاز أيديولوجي تهدد الشيخوخة ملاكته أن يتجدد»<sup>(٧٩)</sup> ولتحقق هذا الغرض فهي بحاجة لا إلى العلم وحده بل إلى مختلف ضروب المعرفة.

## ثانياً: تأكيد العصمة

ونعني بذلك أنَّ الأيديولوجيا بحاجة دائماً إلى أن تظهر أمام حاملها، أمام أفرادها خصوصاً، والآخرين عموماً، على أنَّها هي الرؤية الصحيحة الصادقة التي تفسر ظواهر الكون والحياة تفسيراً صحيحاً معصوماً من الغلط ومن الأغراض ومن الهوى، «وبالنظر إلى أنَّ الواجب على الأيديولوجيا أن تؤكد عصمتها، فإنَّه لا يمكنها أن تبحث عن شرح لحيات أملها في تحليل لذاتها، وفي عدم التطابق بين قوتها ومسلكتها.

إنَّها مسوقة بالتالي إلى أن تختار فكرة عدوان العدو والتآمر على أنَّها الشَّرح. إنَّها لإرادة عدوة وخبيثة تلك التي تشرح كلَّ شيء. فتمَّة إذن سيرورة شبيهة بالمحاكمة الهذائية، (الهذائية)، التي ترى دائماً في الخارج سبب نزاع داخليٍّ محجوبٍ، وتبسط ضرباً من (الجدل) اللامحدود في الاضطهاد الذي يتصف فيه فعل الآخر، أيَّاً أكان هذا الفعل، بأنَّه كاشفٌ عن نفاقه، فالصِّراع ضدَّ عدوٍّ خارجيٍّ وتحوُّل التَّمزق الداخلي إلى عداوة خارجية وعدم القول على هذا النحو، - ذلك هو هوى الأيديولوجيا»<sup>(٨٠)</sup> وهذا ما يصعب تحقيقه أيضاً إلا باجتذاب الحقائق العلميَّة التي تتفق مع هذه الأيديولوجيا، والمغالة في إظهارها، والاستفاضة في الحديث عن مدى تأكيدها وتوافقها مع هذه الأيديولوجيا،

٧٩. أندره آكون: الأيديولوجيا . ٢٢٩.

٨٠. م. س. ص ٢٢٩ . ٢٣٠.

وإظهار الخصوم على أنَّهم يشوَّهون العلم ويعبثون بالحقائق العلميَّة بسبب بطل دعواهم وزيف مبادئهم وأفكارهم.

### ثالثاً: الهيمنة النفسية

«إنَّ حاجة الأيديولوجيا إلى أن تضفي الطَّابع النَّفسي على كلِّ شيءٍ نتيجة طبيعيَّة لهذه السيَّورة، فإذا كانت كوارث صلاتها مع العالم تحيل إلى شيءٍ آخر غير العمل المخرب للعدو، فإنَّها سترى قيمة تحليلها موضوعة موضع التَّساؤل»<sup>(٨١)</sup> وخير وسيلة تحول دون إثارة التَّساؤلات هي أن تدخل الأيديولوجيا إلى نفوس أفرادها بصورة محببة ومقنعة كيما تهيم على هذه النفوس وتبعد عن ذاتها أخطار الشكوك والتَّساؤلات، ونفاذ الأيديولوجيا إلى نفوس الأفراد يتطلب منها أن تلبس اللبوس المحبب المقبول، الذي يرضي ميول هؤلاء الأفراد من جهة، وأن تكون مقنعة من جهةٍ ثانية، وحتَّى تكون مقنعة لا بُدَّ لها أن تلبس لبوس العلم، وتستشهد لتدعيم ذاتها بالحقائق العلميَّة الدامغة، أو حتَّى الإدعاء بأنَّها دامغة كيما يسلم بها الأفراد من دون أدنى مناقشة أو جدال.

### رابعاً: عقلنة ذاتها

إنَّ وحدة الأيديولوجيا وتماسكها على هذا النَّحو لا يعدو كونه وحدة بصلات هشةٍ وتماسكاً بروابط واهية، أي إنَّ هذه الوحدة وهذا التَّماسك غير مقبولين ولا معقولين . كل أيديولوجيا بقدر وحدود تزداد وتنقص من أيديولوجيا إلى أخرى - ولذلك فإنَّ كلَّ أيديولوجيا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى أن تضفي على ذاتها طابع العقلانيَّة، وأنَّها ليست ضرباً من الخيال أو التوهم. أو الابتعاد عن أساليب



المعالجة والتَّحليل العقليَّة، ولهذا يعني بالضرورة حاجة الأيديولوجيا إلى الاستناد إلى الحقائق العلميَّة والتَّعويل عليها في شرح ذاتها وتبَيانها لأفرادها وللآخرين. بل إنَّ كلَّ أيديولوجيا تسعى جاهدةً لتؤكِّد أنَّ النَّتائج والحقائق العلميَّة تنهد لتصبَّ في معينها وتتجه لتؤكِّد صحَّة مبادئها وأفكارها ودقَّتها. ولولا تحريف الخصوم لكانت قد حقَّقت ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ، وبهذا المعنى يرى لينين أنَّه «على الرَّغم من أنَّ أيَّاً من المدارس الطبيعيَّة في أيِّ مجالٍ من مجالات المعرفة الطبيعيَّة لم تستطع الارتفاع إلى مستوى الماديَّة (الجدليَّة) مباشرةً وتوَّاً. فإنَّ الفيزياء المعاصرة هي التي تقوم بهذه الخطوة، وسوف تقوم بها، بيد أنَّها - ولأنَّها في حُسن المثلاليَّة كما يرى - لا تخطو الطَّريقة الصَّحيحة الوحيدة، نحو المعرفة الطبيعيَّة الوحيدة مباشرةً، بل مداورةً، ليس عن وعي بل بعقوبة، ومن دون أن ترى بوضوح هدفها النَّهائي: بل هي تقترب منه متمسكةً بإيَّاه ومترنَّخةً حتَّى الارتدادات إلى الوراء. إنَّ الفيزياء المعاصرة منطرحهً تعاني مخاضاً، إنَّها تلد الماديَّة (الجدليَّة)»<sup>(٨٢)</sup>.

## خاتمة

من حتميَّة لينين ووثوقيته أعود لأؤكِّد من جديدٍ ما بدأت به البحث وهو أنَّه بفضل الماركسيَّة اشتهرت الأيديولوجيا وكان يمكن أن تموت ويموت ذكرها، تحولت إلى اصطلاح يتردَّد على كل لسان. ولكنَّ لهذا الفضل على انتشار الأيديولوجيا واشتهارها وتحميلها كل هذا الزخم الذي وصلت إليه لم يكن مع الأسف بما تستحق وتحتاج وإنَّما كان



بمبالغات وتحويلات حوّلت الأيديولوجيا إلى ببعين في آن معاً؛ ببيع المعنى المريب السيء الذي يوجب الشعور بالعار من وجوده، وبيع كونها فكرة الخصم والعدو. وليست الأمر ينتهي هنا.

أخطر ما وقعت فيه الماركسيّة مشتقاتها هو أنّها انتفخت ذاتها الأيديولوجيّة انتفاخاً مريعاً جاوز حدود الخيال وجاوز قدرة المنطق علىّ تقبلها أو هضمها ومع تضخمها الهائل لهذا فإنّهم لم يروا مبالغتهم في تقدير ذاتهم ولم يروا مبالغتهم في وثوقيتهم وجبريتهم التي لا تطاق بحال من الأحوال على الرّغم من كل الانتقادات التي وجهت لهم من هذا الجانب التي كانت لتضع حدّاً لتطرفهم الشديد لو أنّهم لم يتعاملوا معها تعاملأً أيديولوجياً وفهموها على أنّها هجوم معاد يجب التصدي له.

الحقيقة أنّ ماركس ذاته بدأ هذه الوثوقيّة العمياء في نفسه وفلسفته وأيديولوجيته حتّى اشتهر قول ناقديه بأنه أراد أن يلوي عنق التاريخ ليصدق تحليله. فإذا كان ماركس قد لوى عنق التاريخ فإن الماركسين لووا عنق التاريخ وكسروا عنق المنطق... فكتبوا على أنفسهم حتميّة الاختيار التي تبدو بواردها جليّاً في الآونة الأخيرة.

قبل بضع أشهر كنت أمشي وأحد أساتذتي داخلين إلى الكلية فعلم أنّي صائمٌ، وكنا في رمضان، كان هذا الأستاذ سليط اللسان بطبيعته فاستهزأ بالصيام واقترب من بالاستهزاء من رسول الله، فقاطعته قائلاً:

- لما التسرع والارتحال؟ لهذا مقدس، دعك من الجانب الدّيني ألا يوجد

مقدس ترفض أن يسيء أحد إليه؟

قال: لا يوجد شيء فوق التّقّد.. لا يوجد مقدّس.

لا يوجد شيء فوق التَّقد، ولا يوجد شيء فوق القداسة العبارة المشهورة التي يكررها الماركسيون خاصّة. فقلت له وأعي ما أريد من القول:  
. يعني برأيك ألا يوجد شخص يمكن أن يكون كلامه غير قابل للتَّقد؟  
فقال بسرعة ومن دون تردُّد:  
. فقط ماركس غير قابلٍ للتَّقد.

قلت له: ماركس إنسان يعني أنّه يمكن أن يوجد إنسان أفهم منه قبله أو بعده، وكلامه أكثر دقة منه أيضاً.  
قال: مستحيل.

قلت له: ليس مستحيلاً، طالما هو إنسان مثلنا من لحم ودم فاحتمال مجيء من هو أفهم منه أمر ممكن جداً... بل يوجد فعلاً من هو أفهم منه...  
قلت ذلك وفي بالي ما فيه، فانتفض وقد تفاجئ بقول وسألني مندهشاً:  
من؟

قلت له: أنت.  
ولم يكن هذا ما في بالي في حقيقة الأمر ولكنني أردت إنهاء الكلام في الموضوع، فضحك ضحكة قهقهائية...

بهذه العقلية أطاح الماركسيون بكلّ قداسة وحَوّلوا اللامقدس إلى مقدس فنسفوا الأيديولوجيا اليسارية نفساً جذرياً. قالوا بأنّ كل من ليس منهم غير معقول ولا منطقي، وكل من معهم منطقي ومعقول. لقد كسروا عنق المنطق ذاته، وانعدمت الموضوعيّة انعداماً مريباً.

فإذا انتقلنا إلى تعاملهم مع العلم والمعرفة والأخلاق لوجب أن نجد عجباً  
على الأقلّ استناداً إلى ما رأيناه، وبالفعل هذا ما كان. كتبت الموسوعة الفلسفيّة

السوفييتية في تعريف كلمة السيبرنيتيك قائلة: «هو علم استعماري لا حاجة لمعرفته».

أيمكن أن يتقبَّل عاقل ذلك؟  
على ذلك قس ما بقي فلن يكون القياس صعباً أبداً.

بنت السيد أحمد  
البيولوجيا والعلم

# بشرح للجمهور

- كارل ماخايم: الأيديولوجيا والطوباوية . ترجمة عبد الجليل ضاهر . بغداد . ١٩٦٨م.
- رشيد مسعود: ملاحظات حول الفهم الفلسفي للأيديولوجيا . مجلة الفكر العربي العدد . ١٥ . ١٩٨٠م.
- رشيد مسعود: مادة الأيديولوجيا . ضمن الموسوعة الفلسفية العربية . المجلد الأول . المصطلحات والمفاهيم . معهد الإنماء العربي . ١٩٨٦م.
- عبد الله العروي: مفهوم الأيديولوجيا . دار الفارابي . المركز الثقافي العربي/الدار البيضاء . ١٩٨٠م.
- ميشيل فادية: الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية . ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي . دار التنوير . بيروت . ١٩٨٢م.
- ياكوب باريون: ما هي الأيديولوجيا؟ . ترجمة أسعد رزوق . الدار العلمية . بيروت . ١٩٧١م.
- كارل ماركس وفريدريك إنجلز: الأيديولوجيا الألمانية . ترجمة فؤاد أيوب . دار دمشق . دمشق . ١٩٧٦م.
- لويس ألتوسر: الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية . ضمن كتاب: دراسات لا إنسانية من لويس ألتوسر وجورج كانفليم . ترجمة سهيل القش . الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٨١م.

- اندره آكون: الأيديولوجيا . ضمن كتاب المجتمع الحديث . ترجمة وجيه أسعد . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣م .
- أبو البقاء الكفوي: الكليات . وزارة الثقافة . دمشق ج ٣ . ١٩٨٢م .
- صادق جلال العظم: مناهج البحث في العلوم التجريبية . مطبعة خالد بن الوليد . دمشق . ١٩٨١م .
- جيرار بوي: العلم والأيديولوجيا . ضمن كتاب الأيديولوجيا في العالم المعاصر . ترجمة صلاح الدين برمدا . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣م .
- لويس ألتوسر: من رأس المال إلى فلسفة ماركس . ضمن كتاب قراءة رأس المال . بإشراف لويس ألتوسر . ترجمة تيسير شيخ الأرض . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٢م .
- صلاح قنصوه: الموضوعية في العلوم الإنسانية . دار التنوير . بيروت ط ٢ . ١٩٨٤م .
- م. أندرييفا: الدور المنهجي للنظرية في مختلف مراحل البحث الاجتماعي . مجلة الفكر العربي . العدد ٦ / ١٩٧٨م .
- جان بياجه: وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم . ترجمة الدكتور أسعد عربي درقاوي . ضمن كتاب الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية . وزارة التعليم العالي . دمشق . ١٩٧٦م .
- ي. إيلين: البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا . ترجمة محمد أحمد شومان . دار الفارابي . بيروت . ط ١ . ١٩٨٤م .

- جان . وليم . لابيير: ما معنى الأيديولوجيا . ضمن كتاب الأيديولوجيات في العالم الحاضر . ترجمة صلاح الدين برمدا . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣م.
- توفيق الطويل: أسس الفلسفة . دار النهضة العربية القاهرة . ط ٦ . ١٩٧٦م.
- نايف بلوز: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية . مطبعة الداودي . دمشق ١٩٨٤م.

درة السيد أحمد  
الأيديولوجيا والعلم



# مركز كتّاب المؤلف

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨ م.
- أسس التوثيق؛ محور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١ م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقنية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥ م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥ م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣ م.
- أميرة النَّار والبحار ( شعر ) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧ م.
- أنا صدى الليل (شعر) . دار الأصالة للطباعة - دمشق - ١٩٩٥ م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩ م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥ م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١ م.
- أنشودة الأحران ( شعر ) - دار الأصالة للطباعة - دمشق . ١٩٩٦ م.
- اخيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط ١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦ م . ط ٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١ م.
- اخيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥ م.



- انخيار الشعر الحر - دار الثقافة - دمشق (ط١) ١٩٩٤م. - دار الفكر الفلسفي . دمشق - (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انخيار دعاوى الحداثة - دار الثقافة - دمشق - ١٩٩٥م.
- انخيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انخيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعتها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انخيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- انخيار وهم الحوار بين الحضارات . إيرو للطباعة . بيروت . ٢٠١٦م.
- البحيري؛ عبقرية وغربة وجمال . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق - ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة ثورة في كل شيء . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والحلول التهرجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.

- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان ، ط ٢ ، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبينتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة ( قصص ) - ن . م - دمشق - ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أم أمُّ العلوم ؟ - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين .. دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- سكر مالخ (قصص) . حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- شظايا على الجدران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- صوت السوط (مسرحية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- الطريق إلى الإبداع؛ نحو نظرية جديدة . إيبرو للطباعة . ٢٠١٦م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- العدوان الأمريكي على سوريا؛ حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العدوان الروسي على سوريا؛ مشروع إبادة الشعب والحضارة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.

- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م .
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م .
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م .
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان / الأردن . ٢٠١٣م .
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظرية جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م .
- عواد من دون عود ( قصص ) - دار الأصالة للطباعة - دمشق - ٢٠٠٧م .
- غاوي بطالة ( قصص قصيرة ) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م .
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م .
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون - دار طلاس - دمشق - ١٩٩٣م .
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م .
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م .
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م .
- فيلا وعلبة حلاوة ( قصص قصيرة جداً ) - دار الأصالة للطباعة - دمشق - ٢٠٠٧م .
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م .
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م .
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م .
- كاسيوس لوبجينوس: الرائع؛ بحث جمالي قيمة الروعة . ترجمة ودراسة تقديم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م .
- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م .

- الكل يطلق النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقين ( شعر ) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيفيلية ونيتشوية تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق ( قصص قصيرة جداً ) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.

- نزييف العقل العربي؛ رؤية في هجرة الكفاءات العربية . العالم العربي . عمان . ٢٠١٦م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط ١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م . ط ٢: دار إنانا ٢٠١٠م .
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م .
- هؤلاء أساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا - دار الثقافة - دمشق - ١٩٩٤م .
- هؤلاء أساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط ٢) - دار الفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٣م .
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م .
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م .
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م .

بسم الله الرحمن الرحيم  
 الدكتور أحمد  
 النوراني

# المحتوى

- ٠٠٥ ..... الإهداء .
- ٠٠٧ ..... مقدمة .
- ٠١٥ ..... الفصل الأول: ما العلم؟ .
- ٠١٧ ..... مقدمة
- ٠١٨ ..... أولاً: في مفهوم العلم
- ٠٢٢ ..... ثانياً: خصائص العلم
- ٠٢٤ ..... ثالثاً: ولادة العلم وتطوره
- ٠٢٧ ..... رابعاً: تصنيف العلوم
- ٠٣١ ..... خاتمة
- ٠٣٣ ..... الفصل الثاني: ما الأيديولوجيا؟ .
- ٠٤٥ ..... الفصل الثالث: آلية التأثير الأيديولوجي .
- ٠٤٧ ..... مقدمة
- ٠٤٨ ..... أولاً: شمولية الرؤية
- ٠٥٠ ..... ثانياً: مصداقية الرؤية
- ٠٥٣ ..... خاتمة
- ٠٥٥ ..... الفصل الرابع: التأثير الشعوري للأيديولوجيا .
- ٠٦٧ ..... الفصل الخامس: التأثير اللاشعوري للأيديولوجيا .

٠٧٩	.....	. الفصل السادس: الفرق بين الأيديولوجيا والعلم
٠٨١	.....	مقدمة
٠٨٥	.....	أولاً: النسقية
٠٨٦	.....	ثانياً: الإلزامية
٠٨٧	.....	ثالثاً: التراكمية
٠٨٨	.....	رابعاً: التتابعية
٠٨٩	.....	خامساً: الجودة والأصالة
٠٩٠	.....	خاتمة
٠٩١	.....	. الفصل السابع: العلاقة بين العلم والأيديولوجيا
٠٩٣	.....	مقدمة
٠٩٣	.....	أولاً: تلازم العلاقة
٠٩٥	.....	ثانياً: منطلق العلاقة
١٠١	.....	خاتمة
١٠٣	.....	. الفصل الثامن: الأيديولوجيا تعرقل العلم
١٠٥	.....	مقدمة
١٠٥	.....	أولاً: الإيديولوجيا تعرقل العلم
١٠٨	.....	ثانياً: حاجة العلم للأيديولوجيا
١١١	.....	خاتمة
١١٣	.....	. الفصل التاسع: حاجة الأيديولوجيا للعلم
١١٥	.....	مقدمة
١١٦	.....	أولاً: تعزيز الوحدة

١١٧	.....	ثانياً: تأكيد العصمة
١١٨	.....	ثالثاً: الهيمنة النفسية
١١٨	.....	رابعاً: عقلنة ذاتها
١١٩	.....	خاتمة
١٢٣	.....	. ثبت المراجع
١٢٧	.....	. صدر من كتب المؤلف
١٣٣	.....	. المحتويات







IDEOLOGY AND SCIENCE  
The Relationship Between Ideology,  
Science And Understanding

By  
Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad  
138 pages  
First edition  
Tripoli 2017  
All rights reserved

عزیز السید احمد  
الأیدیولوجیا والعلم  
العقد فی بین الفکرین والجهاد والوعاء والضم

# **IDEOLOGY AND SCIENCE**

*The Relationship Between Ideology,  
Science And Understanding*

*By*

*Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad*

**Tripoli 2017**

الكتاب



هذا الكتاب

سيطر التفكير الأيديولوجي  
على الفكر البشري طيلة نصف  
القرن الأخير من القرن العشرين وهو  
فترة وجود الاتحاد السوفيتي ، وبانتهاء  
الاتحاد السوفيتي وتفككه تراجع الاهتمام  
بالأيديولوجيا تراجعاً هائلاً عجيباً حتّى يمكن  
القول إنه انتهى تقريباً في السنوات الأخيرة  
وخاصة منذ حلول القرن الحادي والعشرين ،  
فهل انتهت الأيديولوجيا ، وكيف تنتهي أصلاً؟  
تم تأليف هذا الكتاب في السنوات الأخيرة من  
عمر سطوة الأيديولوجيا والتفكير الإيديولوجي  
ولكنه يرى أن الأيديولوجيا لم تنته  
بل ويؤكد الكاتب أنها لن تنتهي  
كيف يمكن أن يكون ذلك  
هذا هو الكتاب

عزّات السيد أحمد

الأيديولوجيا والعلم

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم



IDEOLOGY AND SCIENCE  
The Relationship Between Ideology,  
Science And Understanding  
Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad  
First edition Tripoli 2017